

TIGHT BINDING BOOK

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190303

UNIVERSAL
LIBRARY

بجمة التأليف والترجمة والنشر ١٩١٤

الثورة الفرنسية

تأليف

حسن جلال

رئيس مكتب وزير الحرية



أرسطو : المعلم الأول

سلسلة المعارف العامة

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٦ هـ - ١٩٢٧ م

(حقوق الطبع محفوظة للجنة التأليف والترجمة والنشر)

كلمة اللجنة

قامت لجنة التأليف والترجمة والنشر منذ أنشئت الى اليوم بإخراج نحو ثلاثين كتابا . أكثرها مدرسى ولما كانت غاية اللجنة خدمة العلم ونشر الثقافة بين جمهور المتعلمين من غير تقييد بدائرة المدارس الضيقة ، قررت أخيرا أن تخرج سلسلة كتب مُبسَّطة تتناول مختلف الموضوعات العلمية والتاريخية والأدبية . وولكت الى جماعة من أعضائها معالجة تلك الموضوعات بطريقة مبتكرة روعيت فيها عدة اعتبارات منها أن يكتب كل عضو في الفرع الذي خصص نفسه له حتى تخرج رسالته ثمرة ناضجة لاطلاعه الطويل وخبرته الماضية — وأن يفترض المؤلف في القارئ أنه لم يسبق له علم بموضوع كتابه فيصوغ رسالته بلغة سهلة ويجعلها وحدة مستقلة قائمة بذاتها لا تستدعى ممن يطالعها أن يراجع غيرها ليكمل نقصا فيها أو يستوضح غموضا بها . وأن [يحرص] موضوعه جهد الطاقة فلا يدع سبيلا الى المقارنة بين ما ينشر من المعلومات وبين ما هو واقع في مصر دون أن يسلكه .

وفي الجملة كانت غاية اللجنة أن تقوم بإعداد مائة تبسط عليها
صنوف العلم في أشهر مظاهرها وفي أمهل تراكيها وأقربها
للهمز والتمثيل .

وهي تغبط اليوم بتقديم باكورة جهدها في هذا السبيل
وتسأل الله أن تكون قد وقفت للوصول الى غايتها . وأن يكون
التوفيق حقيقها فيما تخرجه بعد اليوم من الحلقات الأخرى في هذه
السلسلة .

فهرس الكتاب

صـيـغة

الباب الأول — تمهيدات عامة ١

(١) الثورة الفرنسية ١

(٢) روح الجماعات ٣

(٣) المقارنة بين فرنسا وغيرها من دول أوروبا ٨

(٤) الحكومة ١٢

(٥) روسو وكتاب العقد الاجتماعي ١٤

(٦) أنواع الحكومات ٢١

(٧) الانقطاع ٢٤

(٨) حقوق الأفراد ٢٧

الباب الثاني — أسباب الثورة الفرنسية ٣١

الفصل الأول (حالة الشعب الفرنسي قبل الثورة) ٣١

(١) التفرقة بين الطبقات ٣١

(٢) الخطابات المختومة ٣٤

(٣) حق الصيد ٣٩

(٤) تعاسة العامة وبذخ الأشراف ٤٠

(٥) الفوضى العامة وفوضى الضرائب ٤٤

صحيفة

الفصل الثاني (حكومة فرنسا قبل الثورة) ٤٩

(١) لويس الرابع عشر يستفد موارد بلاده ٤٩

(٢) لويس الخامس عشر ٥١

(٣) ماري انتوانت ولويس السادس عشر زوجين — وملكين ٥٨

الفصل الثالث (موقف الطبقات حيال حركة الاصلاح) ٧٢

الباب الرابع^(١) — الثورة والقضاء على العهد القديم —

[من ٥ مايوس ١٧٨٩ — ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩] ٧٤

الفصل الأول (لويس السادس عشر والأزمة) ٧٤

(أ) فترة الاصلاح ٧٦

(ب) الوزراء المفسدون ٨٢

الفصل الثاني (الجمعية العمومية) ٩٠

الفصل الثالث (الجمعية الوطنية) ٩٨

الفصل الرابع (اليمين التاريخية) ١٠٠

الفصل الخامس (وقفة ميرابو الشهيرة) ١٠٣

الفصل السادس (مقاومة البلاط) ١٠٨

الفصل السابع (يوم ١٤ يولي في باريس) سقوط الباستيل ... ١١٣

الفصل الثامن (يوم ١٤ يولي في فرساي) مؤامرة البلاط ... ١٢٠

الفصل التاسع (آثار سقوط الباستيل) ١٢٦

الفصل العاشر (مساء ٤ أغسطس) خاتمة العهد القديم ... ١٣١

صحيفة

الباب الخامس^(١) — الجمعية الوطنية تضع الدستور —

[من ٥ أغسطس سنة ١٧٨٩ — ٣٠ سبتمبر سنة ١٧٩٠] ... ١٣٥

الفصل الأول (حقوق الانسان) ... ١٣٥

الفصل الثاني (الدستور) ... ١٤١

الفصل الثالث (يوم ٥ و ٦ أكتوبر) مظاهرة النساء ... ١٤٤

الفصل الرابع (فرار الملك) ... ١٥١

الفصل الخامس (بعد الفرار — قرار بلنزي) ... ١٦٠

الفصل السادس (أعمال الجمعية الوطنية) ... ١٦٤

الباب السادس^(٢) — الحكومة الدستورية —

[من أول أكتوبر سنة ١٧٩١ — ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢] ... ١٦٨

الفصل الأول (أحزاب الجمعية التشريعية) ... ١٦٨

الفصل الثاني (اعلان الحرب) ... ١٧٢

الفصل الثالث (بدء الحرب ومظاهرة ٢٠ يونيو) ... ١٧٨

الفصل الرابع (الملك في السجن) ... ١٨٢

الفصل الخامس (مذابح سبتمبر — سقوط الملكية) ... ٤٨٨

(١) الصواب الباب الرابع .

(٢) الصواب الباب الخامس .

صحيفة

الباب السابع^(١) - الجمهورية -

١٩٤	...		٢٧ أكتوبر سنة ١٧٩٥	...
١٩٤
١٩٩
٢٠١
٢١١
٢١٣
٢١٨
٢٢٥
٢٢٩
٢٣٥
٢٤٣
٢٤٨
٢٥٠
٢٥٨
٢٦٤
٢٦٨

الباب الثامن^(٢) - الديركتوار (حكومة الإدارة) -

٢٧٤	...		١٧٩٥ - نوفمبر سنة ١٧٩٩	...
-----	-----	--	------------------------	-----

الثورة الفرنسية

الباب الأول

تمهيدات عامة

(١) الثورة الفرنسية :

الثورة : انقلاب في النظم القائمة المعروفة . فقديمًا كان يسافر الناس على دوابهم وفي العربات فلما اكتشفت قوة البخار وأخترت القاطرات البخارية حدثت « ثورة في طرق المواصلات » .

وقديمًا كان الناس يجزون الصوف بأيديهم عن ظهور أغنامهم ويغزلونه بمغازلهم . ثم ينسجونه في بيوتهم . لا يعتمدون في صنعه إلا على أيديهم . فلما اخترعت آلات الغزل والنسيج . ولم يكذب في العالم صغيرة ولا كبيرة إلا والآلات تصنعها، وقع ما يعرف باسم « الثورة الصناعية » .

وغير هاتين الثورتين أنواع أخرى من الثورات لم يشهريها سيف ولم يطلق فيها مدفع . ولكنها لا يزال يتحدث الناس عنها بأنها ثورات .

والثورة الفرنسية ثورة تشترك مع باقى الثورات فى خواصها
فهى لم تزد على كونها انقلابا فى النظم التى كانت معروفة فى فرنسا
قبل وقوع الثورة .

وتمتاز الثورة الفرنسية بأنها لم تكن ثورة سياسية ترتب عليها
انقلاب فى حكومة فرنسا فحسب ولكنها كانت ثورة سياسية
اجتماعية اقتصادية .

فأما كونها ثورة سياسية فلأنها انتهت بقلب نظام الحكم الملكى
فى فرنسا الى نظام جمهورى .

وأما كونها ثورة اجتماعية فلأنها أدت الى إلغاء امتيازات
الأشراف ورجال الدين ومحت الفوارق التى كانت قائمة بين طبقات
الشعب الفرنسى وجعلت فرنسا كلها طبقة واحدة بعد أن كانت
ثلاث طبقات متباينة .

وأما كونها ثورة اقتصادية فلأنها غيرت نظام الضرائب
والرسوم الجمركية وألغت نظام الاحتكار ومحت القيود التى كانت
على الصناعات وانتزعت أملاك الكنيسة وجعلتها ملكا للأمة .
ولعل هذه الصفة الجامعة من بين صفات الثورة الفرنسية هى أهم
ما جعلها تنفرد فى التاريخ بتلك المكانة التى تشغلها؛ فالتاريخ
كما لا يخفاك حافل بأخبار الثورات ولا يكاد يخلو تاريخ أية دولة

من ذكر ثورة انتابتها . ولكك لا نتحدث عن « الثورة » أو عن أمر وقع في « عصر الثورة » إلا وينصرف الحديث على الأكثر الى « الثورة الفرنسية » .

على أن فرنسا نفسها وقع فيها أكثر من ثورة واحدة فهناك (ثورة الأيام الثلاثة) التي وقعت سنة ١٨٣٠ وهناك ثورة سنة ١٨٤٨ عدا الثورة الأولى التي وقعت سنة ١٧٨٩ ومع كل ذلك فهذه الثورة الأولى هي التي ينصرف اليها الحديث كلما جرى ذكر « الثورة الفرنسية » . وذلك لأنها هي أساس كثير مما حدث بعدها في أوروبا كلها بل وفي جهات أخرى من العالم من حروب وثورات كما أنها أساس شيء غير قليل مما انتشر بعدها من المبادئ والإصلاحات .

(٢) روح الجماعات :

وعلى الرغم من وقوف الثورة الفرنسية في تاريخ العالم هذا الموقف الفذ فقد ضل كثير من المؤرخين المعاصرين لها في فهمها وتعليلها . وجهروا بأرائهم فيها فقالوا : (إن الثورة الفرنسية كانت صنفا من الجنون تحولت معه فرنسا وبعض بقاع المعمورة الى مارستان) وكان هذا مذهب العدد العديد من الانجليز ، وفلاسفتهم .

ولهم العذر في هذا الخطأ الفاحش الذي وقعوا فيه لأنهم أرادوا أن يحكموا على أعمال فرنسية بعقل انجليزي مع ما هو معروف من البعد بين نفسية الشعبين وعقليتهما . ولم يكن الانجليز وحدهم هم الذين أساءوا فهم روح الثورة بل شاركهم في ذلك الألمان . ومما يروى في ذلك أن الأستاذ المؤرخ الألماني (نيبور) كان يرى رأى الانجيز في الثورة أيضا إلا أنه غالى في حكمه فقال : "إن الثورة الفرنسية فلتة جنون تبرأ منها فرنسا ولا يعود بمثلها الزمن أبدا ! " فلما بلغه نبأ الثورة الفرنسية الثانية وثبت له خطئ رأيه تولاه الكمد . واعتل على أثر ذلك وقضى نخبة قتيلاء بدء (الأيام الثلاثة) وهو اسم ثورة سنة ١٨٣٠ لما رأى أن أبناء رجال الثورة الأولى وأحفادهم قاموا ببرون عمل آبائهم وأجدادهم ويأبون إلا تمسكابه وإصرارا عليه .

ولكن علم النفس تقدم بعد الثورة الفرنسية وأصبح يبحث في نفسية الجماعات بعد أن كان مجاله قاصرا على البحث في نفسية الأفراد وقام من علماء فرنسا أنفسهم من درس نفسية الجماعات دراسة علمية وشرح خواصها ومميزاتها ، وبحث في مشاعرها وأخلاقها وطرق تفكيرها ووسائل إقناعها وتقلب معتقداتها وغير ذلك مما سهل معه تفهم روح الثورة والوقوف على بواعثها

وإدراك حقيقة أسبابها وتنبع أطوارها في ضوء هذه البحوث
الكاشفة المنيرة .

وإليك بعض تلك المبادئ التي تعينك على مسطرة التأثيرين
في عجيب ما صنعوا دون أن تضيق صدرا بأعمالهم ومن غير أن
يعجزك فهم فعالهم .

فاعلم أولاً أن الجماعة هي كل لفيف من الناس جمعتهم غاية
واحدة . وأن الفرد في الجماعة يخالف ما كان عليه قبل أن
يندمج فيها .

وأن أهم ما يمتاز به الجماعة وجود (روح عامة) تجعل جميع
أفرادها يشعرون ويفكرون ويعملون بكيفية تخالف تمام المخالفة
الكيميائية التي يشعرو ويفكرو ويعمل بها كل واحد منهم على انفراده .
وسترى بين رجال الثورة الفرنسية أفراداً يحبذون القسر والفنك
كانوا في زمن السلم قضاة من ذوى الفضل أو علماء أولى سكينه
وهذوء فلما سكنت العاصفة عادوا الى هدوئهم وادعين .

وانسبب في ذلك أن الناس يتفاوتون في عقولهم ولكنهم
يشابهون في مشاعرهم الفطرية . فاذا أنضم بعضهم الى بعض
غلبت صفاتهم المشتركة على صفاتهم الخاصة ؛ وانزوت شخصياتهم
الفردية تحت الشخصية العامة ؛ وأصبح الحكم في الجماعة للشاعر

ولم يبق للعقل عليها كبير سلطان . فهي تندفع بمشاعرها ولا تستطيع أن تقف لتفكر . ولذلك كان من أخص صفات الجماعة أنها أقدر على العمل منها على التفكير .

فاذا عرفت ذلك فاعرف أيضا أن الجماعة أقدر على التدمير منها على الإصلاح والتعمير . وذلك راجع الى أن الجماعة لا تأتلف عادة إلا هزيمة الجانب سلبية الحق . فاذا اجتمع أفرادها وأحس كل واحد بالقوة التي اكتسبها من اجتماعه بغيره . ثم رأى أن تلك المسئولية التي كانت تحكم أعماله وهو فرد قد زالت عنه تقريبا بحكم اندماجه في الجماعة وسرت اليه فوق كل ذلك عدوى المتحمسين من زملائه ؛ وأصابته تلك النوبة المغناطيسية التي تستولى عادة على عواطف الجماهير . فاسأل الله السلامة لعباده من شر ما خلق . فليست تلك إلا عاصفة بشرية عاتية والويل كل الويل لما تجرر فوقه أذيالها .

قال جوستاف لوبون صاحب كتاب "روح الاجتماع" :
 [يهبط المرء بمجرد انضمامه الى الجماعة عدّة درجات من سلم المدنية ولعله كان رجلا مثقف العقل مهذب الأخلاق في نفسه ولكنه في الجماعة ساذج تابع للغريزة ففيه اندفاع الرجل الفطري وشدته وفيه عنفه وقسوته وفيه حماسه وشجاعته . وفيه من سهولة

التأثر بالألفاظ والصور ما لم يكن يتأثر به وهو خارج الجماعة تم فيه
الانقياد بذلك الى فعل ما يخالف منافع البديهية وينافض طباعه
التي اشتهرت عنه [.

هذه بعض المبادئ الهامة التي تحكم سير الجماعات . فاذا أنت
رعيته فسيسهل عليك أن تعرف كيف كان كل فرد من أفراد
(المؤتمر الوطني) رجلا متتورا سليم الطبع في ذاته فلما اجتمع بغيره
من الأعضاء لم يجمعوا في حملتهم عن تقرير أفضع الأعمال حتى
أسلموا للإعدام أظهر الناس براءة من الآثام . وسيسهل عليك
كذلك أن تفهم كيف تمسح الأشراف ليلة ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩
الشهيرة ونزلوا للشعب عن امتيازاتهم وهم أحرص الناس عليها
ولو أن ذلك طلب اليهم فرادى لما كان له عندهم غير الرفض
البات .

ولكن وجه آخر لنفسية الجماعات أريد أن ألفت نظرك اليه
وهو أنه اذا صح أن الجماعة شريرة في كثير من الأحيان فمن الصحيح
أيضا أنها تمتاز بشيء غير قليل من الفضائل في أحيان كثيرة أخرى .
وتلك حال الجماعات التي يستفزها قوادها الى الجهاد في سبيل الله
أو في سبيل المجد والرفعة أو للذود عن الوطن وسترى فيما يأتي من
التفصيل كيف استطاعت فرنسا الجائعة المفلسة المضطربة أن-

تقف بشجاعة في وجه أوروبا الغنية الهادئة المنظمة . ثم كيف استطاعت أن ترد هجماتها ، وتصدها ، وتغلب عليها .

(٣) المقارنة بين فرنسا وغيرها من دول أوروبا :

ولقد كانت فرنسا قبيل الثورة في حالة يرثى لها وكان الناس يتوقعون أن تحدث فيها انقلابات سياسية خطيرة . غير أنه لم يكن أحد يستطيع أن يحدد بالدقة نوع تلك الانقلابات . وإن كان الناس كلهم مجمعين على أن كارثة لا بد أن تحل بتلك البلاد . فان حكومتها لم تكن تعير شكايات أهلها الصارخة أى اهتمام . ولقد حققت الأيام جميع هذه المخاوف إذ تخرجت الأمور في سنة ١٧٨٩ ووقع الانقلاب في صورة بشعة هدمت النظام الاجتماعي والسياسي في تلك البلاد من قواعده حيث قام الناس ينتقمون لأنفسهم ولأسلافهم من تلك النظم الاستبدادية التي ظالموا يرزحون تحتها أجيالا طويلة في شخص رؤسائهم الذين كانوا يعاصرونهم .



وبينما كانت تجرى هذه الحوادث في فرنسا كانت إنجلترا في أثبت حال من الاستقرار والهدوء . ولم يكن ذلك نتيجة لتمتعها بقوانين معتدلة حكيمة فحسب ؛ ولكن لحصول أهلها على تلك

الحقوق التي هي مطمع كل حي والتي ينفي وجودها كل تظلم وكل شكاية .

فكان الناس بوجه عام يتمتعون بحق المساواة أمام القانون .

وكانت حرية الرأي والاجتماع مكفولة لهم .

وكانت طبقة الأشراف عندهم منتشرة في طول البلاد وعرضها .

تتولى بنفسها زعامة الرأي العام فيها .

وكانت أبواب المجد والشرف مفتوحة أمام أصحاب الكفايات

مهما كان منبتهم وضيعا حقيرا . فكان أخط الناس نسباً

إذا توفرت له أسباب النبوغ في أى فن من الفنون يجد الطريق

فسيحاً أمامه والمستقبل بساماً له ويتلقاه الأشراف في زميرهم

بالبشر والترحيب .

وكان التعليم منتشراً في أنحاء البلاد وكان من أقوى مميزات

الشعب الانجليزي تفوقه على كافة الشعوب في ولائه للملك

واحترامه للقانون .



وعلى عكس ذلك كانت الحال في فرنسا .

فكان الأشراف يتمتعون بامتيازات واسعة . وكانوا يهجرون

مزارعهم ويقيمون في باريس حيث اللهو وحياة البذخ والرفاهة .

تاركين رجالهم من ورائهم فريسة لأطماع جباة الضرائب الذين لم يكونوا يتقيدون في عملهم وعسفهم بعرف ولا قانون .

وكانت المراكز السامية في الجيش والبحرية ودور القضاء وقفا على الأشراف ولم يكن يطمع واحد من أهل الطبقة الوسطى في أن يرقى الى طبقة أعلى مهما كانت قدرته وكفاءته .

أما الطبقة السفلى فكانت تترغ في حماة الجهل والفقر .

وكان رجال الدين في نعيم لا يتفق مع من صناعته بيع الدنيا وشراء الآخرة وكان أصحاب المناصب العالية منهم يحيون حياة بعيدة كل البعد عما هو مفروض على مثلهم من الواجبات .

وفضلا عن كل ما سبق فإن حرية التدين كانت معدومة في فرنسا . فلم تكن تريد حكومتها أن تعترف بغير الكاثوليكية مذهباً دينياً فيها . وبعد أن أمر هنرى الرابع سنة ١٥٩٨ بالتسامح مع البروتستانت جاء لويس الرابع عشر ومحا هذا الحق وأصبح محظوماً على البروتستانت ممارسة مذهبهم في فرنسا . وأخرج الناس من ديارهم ألوفاً ألوفاً متفين بسبب اختلافهم في الدين عن بقية أهل تلك البلاد .

ولم يكن الناس يعرفون حرية الرأى في ذلك العصر العصيب .

ولا كان للناس ما يكفل لهم شيئا من حريتهم الشخصية . فكان كل انسان عرضة لأن يلقى القبض عليه ويطرح في السجن بغير تحقيق الى أجل غير محدود . وكان التعذيب يجذب الأوصال وتزع الأطراف من بين العقوبات الشرعية التي تحكم بها محاكم ذلك العصر .

وكانت لشركات الاحتكار الكلمة العليا في أسواق فرنسا . وكان لا يدفع الضرائب للحكومة إلا طبقة العمال ومن في درجتهم . أما الأشراف فكانوا معفيين من ذلك . بل إنهم كان لهم الحق في جباية الضرائب لأنفسهم غير ما كان يجبي للحكومة . وكانوا فوق كل ذلك يسخرون العامة في فلاحه أرضهم وفي القيام بخدمتهم من غير أجر ولا جزاء .



أما في معظم دول أوربا الأخرى كروسيا وبروسيا فربما كانت الحال أسوأ مما كانت عليه في فرنسا . وإنما ثارت فرنسا ولم تثر تلك الشعوب على الرغم من انتشار الظلم في أنظمتها لأن الظلم في ذاته لا يحدث الثورات وإنما يحدثها الإحساس بالظلم . ولقد توفرت لفرنسا طائفة من الفلاسفة والكاتب الذين تمكنوا بكلماتهم من خلق هذا الإحساس . ثم ولى الحكم فيها:

لويس السادس عشر الذى كان يتزع بفطرته الى الإصلاح . فلما توجه الشعب اليه شاكيا سوء حاله . وأخذ هو فى معالجة تلك الشكايات وتذوق الناس نعمة الإصلاح اشتطوا فى مطالبهم وبالغوا فى التشبث بتحقيقها كلها مرة واحدة . وادعوا لأنفسهم ما لم يقل أحد بأنه من حقوقهم فوق بينهم وبين أولياء الأمر فيهم ذلك النزاع الذى لم يلبث أن تطوّر الى ثورة عنيفة أكلت نارها الحاكم والمحكوم .

(٤) الحكومة :

تنظر حولك فى جميع جهات العالم فلا تجد إلا دولا قامت فيها طبقة من الحكام على شئون طبقات الأمة الأخرى واختصت نفسها بالسلطة فيها . فكيف نشأ هذا النظام ؟ وكيف أجمع العالم على اتباعه ؟ وهل هو ضرورى للجتمعات ؟ ولماذا اتخذت الحكومات صورا مختلفة فى البلاد المختلفة فهنا جمهورية وهناك ملكية وهناك غير ذلك ؟ وهل تستوى هذه الصور كلها فى صلاحيتها للقيام بما قصدت له الحكومة أم منها الصالح ومنها الفاسد ؟ وهل على الحكومة من واجبات حيال الأمة كما على الأمة واجبات حيال الحكومة ؟ وما هى هذه الواجبات ؟

كل هذه الأسئلة وأشباهاها مما بحثه الفلاسفة المتقدمون والمتأخرون . ولكل طائفة من هؤلاء وأولئك آراء ونظريات سيطرت على العالم في العصور المختلفة .

فقال بعضهم بنظرية القوة والتغلب ومؤداها أن السلطة تأتي من طريق الغلبة والقهر واستعباد الانسان للانسان واستبداد القوى بالضعيف وطموح رئيس القبيلة الى نشر سلطانه على القبائل المجاورة حتى يتم له الملك وأن حكومات العالم نشأت عن هذا الطريق !

وقال آخرون بنظرية التفويض الإلهي وخلاصتها أن الله اصطفى الملوك للمحك بين الناس وأيدهم بروح من عنده فهم خلفاؤه الموكلون بالقيام على مصالح البشر . وليس ينبغي لأحد الا أن يكون لهم سميعا مطيعا .

وقال غيرهم بنظرية التطور الاجتماعى ومحصلها أن الأسرة أول جرثومة تكون منها نظام هذا الاجتماع البشرى وأن سلطة الأب على أفراد أسرته هى أول سلطة عرفت فى تاريخ الاجتماع ومن تلك السلطة نشأت سلطة رئيس العشيرة وسيد القبيلة وأن القبيلة متى أصبحت أمة أصبح رئيسها ملكا .

وادعى آخرون بأن الحكومة إنما نشأت بتعاقد الناس على أن يحكمهم واحد منهم . وتعرف هذه النظرية بنظرية العقد الاجتماعى .

وقال غير هؤلاء كلاما غير هذا الكلام . وليس من شأننا الآن أن نقف عند قول كل واحد من هؤلاء فنوازن بين ما قالوا ونعرف أيهم أخطأ وأيهم أصاب . ولكن الذى يعنيننا هو أن نرجع الى رأى الفلاسفة الذين مهدوا للثورة بنظرياتهم فى هذا الموضوع وأن نرى كيف تطورت أذهان الناس بدراسة هذه النظريات . فأحدثت فى التاريخ ذلك الحادث العظيم الذى نحاول اليوم دراسته .

وأخص هؤلاء الفلاسفة وأبعدهم أثرا فى تهيئة نفوس الفرنسيين للثورة التى قاموا بها هو جان چاك روسو صاحب كتاب (العقد الاجتماعى) .

(٥) روسو وكتاب العقد الاجتماعى :

فأما روسو فرجل سويسرى الأصل . وفد على فرنسا وضاقت به سبل العيش حتى أظلمت الدنيا فى عينيه وامتلأ عليها حقدًا وغلا . وجعل دأبه أن يحمل على تلك المدنية التى ملأت حياة

الانسان بالقيود وحرمة من نعم وحشيته الأولى حيث مرافق الحياة سهلة ميسرة للجميع وحيث لا تفاضل ولا تنافس ولا تطاحن على أعراض الدنيا وأسباب الرزق . ولقد نال بكتاباته هذه شهرة واسعة وأصاب منها في آخر عمره رزقا عظيما وأصبح في عداد الفلاسفة الأفاضل . وتجلّى لك روح فلسفته وأسس تعاليمه وقوة تأثيره في هذه السطور التي افتتح بها كتابه المشهور في التربية (إميل) . حيث يقول :

”يخرج كل شيء من يد الطبيعة حسنا جميلا . ولكنه ينحط ويفسد متى تناولته يد الانسان . فالانسان يحمل تربة هذه البلاد على أن تغذو نبات بلاد أخرى ويقضي على شجرة أن تحمل ثمار شجرة غيرها ويكون سببا في اختلاط العناصر والأجواء والمواسم . ويمسخ خلقه كلابه وخيله وعبيده ويأتي على كل شيء خطأ وتشويهها كأنما لا يلتذ إلا بكل أشوه ممسوخ ويأبى أن يترك شيئا واحدا على ما صورته يد الطبيعة حتى الانسان نفسه فإنه يجبله على الطريقة التي يهواها كما يصنع بسرج فرسه ويطبعه بالطابع الذي يريد كما يفعل بأغصان بستانه ...

يولد الانسان المدنى ويعيش ويموت وهو في حالة رق واستعباد تخاط حوله اللغائف عند مولده . ويختم عليه الكفن عند وفاته .



روسو

وهو فيما بين هذا وذاك يرسف في قيود من النظم والتقاليد . وإنا لنسمع أحيانا من القابلات من تدعى أنها مستصوغ رأس الطفل في أحسن من قالبه الذى نزل عليه بأن تضغط على جوانبه وتعيد تشكيله . بل انا لنسمع لمن أن يصنعن ذلك كما لو كان بارئ الكائنات جلت قدرته قد صورءوسنا فأساء تصويرها فهي في حاجة إلى التعديل والتهديب يتولى ظاهرها القابلات ويتولى باطنها الفلاسفة ! “ .

هكذا كانت حملة روسو على مدينة عصره واستهزائه بنظمه واتهامه إياها بالفساد . وهكذا كانت دعوته الى التخلص منها والعودة الى الطبيعة والفطرة الأولى حيث الحرية والمساواة حتى لقد ثبت في نفس قرائه البسطاء أن الشرور والمنازعات ستظل غالبة في هذا العالم مادام بنيان تلك المدينة قائما . فاذا ما وفقوا إلى هدمه وإزالته . فإنهم واجدون من ورائه دار السلام والهناء والرخاء . فهب الشعب الفرنسى فعلا واضعا نصب عينيه ذلك المراب البراق الذى أبدع روسو في تصويره وتتيقه حتى إذا ما حطم أسوار المدينة التى قامت دونه وجاءه لم يحده شيئا ووجد عنده الفوضى والاضطراب وضل في سبيله ضلالا بعيدا .

وأما نظرية (العقد الاجتماعي) فحصلها أن تاريخ الانسان ينقسم إلى قسمين : قسم سابق على وجود الحكومة وقسم لاحق لها .

أما في العصر الأول فكان الانسان في حالته الطبيعية غير مقيد بقوانين وضعية ولا خاضع لغير أحكام القانون الطبيعي المنبث في نفس كل إنسان بمقتضى الفطرة ولكن الانسان اضطر إلى الخروج من هذه الحالة الطبيعية واتفق مع بني جنسه على إيجاد نظام اجتماعي يخضع فيه كل فرد إلى حكم المجموع مقابل قيام المجموع بحمايته وتنازل فيه عن حريته الطبيعية مقابل تمتعه بالأمن المكفول له من بني جنسه . وبذلك أبدل القانون الطبيعي بقوانين بشرية وأصبح على الأفراد واجبات للمجتمع ولهم حقوق قبله . وهذا الاتفاق يشبه التعاقد ومضمونه كما رأيت مبادلة واجبات بمزايا^(١) .

ولقد تناول هذه النظرية غير روسو كثير من الكتاب والفلاسفة ولكن كان كل واحد منهم يصوغها في قالب الذي يطابق هواه تأييدا للذهب السياسي الذي يريد الدفاع عنه .

(١) مذكرات احمد بك أمين في علم سياسة الدول .

وكان مبدأ روسو الذى ينادى به ويدعوا إليه هو "سيادة الأمة" فصاغ النظرية فى القالب الذى يتفق مع هذا المبدأ . فقال إن حالة الطبيعة الأولى كانت أسعد حالات الانسان لأنه كان ممتعا فيها بكل حريته وقواه ثم كثرت أحوال الانسان ، واشتبكت مصالحهم فوقع بينهم التنافس ووجد بين الناس الغنى والفقير والقوى والضعيف وزادت عوامل الشرور باعتداء بعض الأفراد على بعض حتى كادت تقوى عاطفة الشر المكتسبة على عاطفة الخير التى فطر عليها الانسان . فاضطر إلى مغادرة هذه الحالة الطبيعية وتكوين مجموع يتعاون أفرادها للتغلب على تلك الصعاب التى أصبحت تعترض بقاء الفرد وسلامته والتى أصبح لا قبل للفرد بالتغلب عليها وحده فتنازل كل فرد عن حريته وحقوقه الطبيعية الى ذلك المجموع وتعهد المجموع بصيانة هذه الحقوق ومنع اعتداء الفرد على الفرد . وبذلك تمت المساواة بين الجميع لأنه إذا أطاع كل فرد المجموع فكأنما أطاع نفسه وبقي حرا كما كان . وكان من نتيجة هذا التعاقد إيجاد "إرادة عامة" هى إرادة المجموع أو إرادة الأمة صاحبة السلطة على الجميع . أما الملك فليس طرفا فى العقد وإنما يتولى منصبه بإرادة المجموع فهو وكيل عن الأمة صاحبة السلطة ومنفذ لادارتها ولذلك كان من حقها عزله متى شاعت لأنها هى التى ولته .

ومن السهل الهين أن يقدر الانسان بأى حماسة قويات هذه الآراء التى تجعل الأمة فوق الحكومة من شعب كالشعب الفرنسى الذى كان ينقم من ملوكه استبدادهم ويسخط عليهم لتفريطهم فى القيام بواجباتهم .

على أنه يحذر بنا قبل أن نختتم هذه الكلمة عن الحكومة ونشأتها أن لانسى أن النظريات السابقة كلها ولا سيما نظرية (العقد الاجتماعى) لم ترد على كونها آراء خاصة قصد بها أصحابها تأييد نوع من الحكومة كانت لهم مصلحة فى تأييده وأن معظمها لا أساس له من الحقيقة وأن التاريخ لم يرو لنا متى وقع هذا العقد الاجتماعى مثلاً . ولا كيف نزل الوحي على الملوك بتفويض السلطة إليهم نيابة عن الله سبحانه وتعالى ولا غير ذلك .

وربما كانت أقرب تلك النظريات الى الصحة نظرية التطور الاجتماعى كما أنه أقرب إلى الصواب أن أول حكومة ظهرت فى التاريخ كان ظهورها بعد أن عرف الانسان الأول فن الزراعة واستبدل حياة البداوة واتجاع الكلاء والتنقل المستمر فى الغابات بحياة الاستقرار والتقييد إلى جانب حقوله واحتياجه الى من يحرس له بزراعته ويحمى ملكه ، ويدفع عنه غارات جيرانه .

(٦) أنواع الحكومات :

لما كانت الثورة انقلاباً في الحكومة كان من الواجب على من يدرس تاريخ ثورة من الثورات أن يكون ملماً بأنواع الحكومات ليعرف حقيقة الانتقال الذي أحدثته الثورة .

والحكومات أنواعها كثيرة ولكنها يمكن إجمالها في قسمين رئيسيين وهما :

(١) الحكومة الاستبدادية .

(٢) الحكومة الديمقراطية .

فالأولى ما انحصرت قوة السلطان فيها في يد فرد واحد والثانية ما كانت قوة السلطان فيها في يد جمهور الأمة أو نوابهم .
ثم إن الدول الاستبدادية قد تكون (أ) مطلقة أو (ب) مقيدة .

وهذه في الحقيقة تفرقة سطحية لا ترجع الى أساس تركيب الحكومة وإنما يراد بالأولى الدولة التي لا يتقيد الحاكم فيها بشيء من القوانين فتكون شريعته هواه ودستوره إرادته . ومن الصعب التمثيل لهذا النوع الآن لأن لكل دولة شيئاً من النظم تسنها للجرى عليها ولو الى أجل .

ويراد بالثانية الدولة التي أخذ حاكمها على نفسه إدارة الأمور على مقتضى قوانين يشرعها لتنظيم الأعمال . ولكن بقاء هذه القوانين على كل حال أو زوالها معلق على محض مشيئته ^(١) .

وقد كان هذا شأن معظم الحكومات قبل القرن التاسع عشر . وأقربها الى عهدنا حكومة قيصر روسيا وسلطان تركيا وشاه الفرس . وكلها قد زالت بعد الحرب العظمى ولكن ما زال الحكم المطلق قائما في سيام وفي بعض إمارات الهند .

وأما الحكومة الديمقراطية فتقسم بدورها الى (أ) ملكية دستورية و (ب) جمهورية .

فالأولى ما كانت الرياسة الاسمية فيها لملك يتولى العرش وراثته عن آبائه ؛ والثانية ما أسندت فيها الرياسة لحاكم غير وراثي يتقلد منصبه لأجل معين أو طول حياته .

وفي الحكومة الدستورية يحكم الملك أمته بالاشتراك مع البرلمان ويكون تحديد سلطة كل واحد من الشريكين بواسطة قانون الدولة النظامي أو «الدستور» وليس للملك أن يحدد عن قواعد هذا الدستور بعد أن يعترف به ويقسم أيمن على احترامه والعمل بقواعده .

(١) كتاب (ليكوك) في علم سياسة الدول .

والحكومة الانجليزية أقدم الحكومات الملكية الدستورية في العالم وقد هُدمت الحرب الأوربية أكثر من عشرة عروش كان ملوكها دستوريين اسما ولكنهم لم يحترموا قواعد دستورهم وساروا على غير رأى الأمة التى يتولون أمرها . فلم يحجم الدستور لهذا السبب . وإنما بقى بعد الحرب الملوك الدستوريون بالفعل . وهؤلاء ما زالت عروشهم ثابتة لم تتزعزع .

وأما فى الحكومة الجمهورية فإن السلطة تكون فى يد الشعب الذى ينتخب رئيسه بنفسه والذى تكون الرئاسة فيه موكولة الى شخص يستخدمه الشعب لتولى هذه الرئاسة . ويكون له حق عزله كما أنه هو صاحب الحق فى توليته وهذا النظام الجمهورى هو الوجهة التى توليها معظم الحكومات فى الوقت الحاضر .

ولقد قامت الثورة فى فرنسا على حكومة ملكية كانت السلطة فيها بيد ملك مستبد يعين وزراءه ويعزلهم كيف شاء ويحويثب من قوانين دولته ما أراد ، فقلبها أولا الى حكومة ملكية دستورية ، وأصبحت السلطة فيها مشتركة بين الملك ونواب الأمة ثم ما لبثت أن قلبتها مرة أخرى الى جمهورية كان الشعب فى أول أيامها صاحب السلطة المطلقة . ولو صح لنا أن نسمى الأشياء بحقيقة أسمائها لكانت هذه الجمهورية الفرنسية الأولى خير

مثال للحكومة الدكتاتورية ، وأوضح مثال لالتقاء الأضداد ؛ حيث فر الشعب الفرنسى من استبداد ملوكه وارتمى فى أحضان زعمائه الذين تولوا الدكتاتورية عليه واحدا بعد واحد ، وجعلوا شعار جمهوريتهم الجياوتين !

(٧) الإقطاع :

كانت أغلبية الحكومات فى (القرون الوسطى) وهى الفترة الواقعة بين سقوط الدولة الرومانية فى الغرب وابتداء النهضة الحديثة (٥٠٠ - ١٣٠٠ م تقريبا) من النوع الاستبدادى الذى يحكم فيه الملك رعيته بحض مشيئته ويتصرف فى شئونهم تصرف المالك فى ملكه ، وكان يحيط بالملك أمراء الدولة وأشرفها الذين لهم الامتياز على من عداهم من طبقات الأمة ؛ فكان يحدث أحيانا فى بعض الممالك أن يجلس على العرش ملك ضعيف ليس فى قبضته من القوة ما يستطيع معه أن يحتفظ بسيادته على أولئك الأشراف فكانوا يظهرون بنفوذهم عليه ويتولون السلطة من دونه وتنعكس الآية فيصير الملك لهم تبعا ويدعن لرغباتهم ويقطعهم القطاعات الواسعة لتكون لهم ولذريتهم ولينولوا الأمر فيها كما لو كانوا ملوكا عليها . ولا يكون للملك

غالبا بعد ذلك من حق على هؤلاء الأشراف إلا أن يمدوه بالمال
 يجبونه من قطائعهم وإلا أن يقدموا له الجنود يجمعونها من رجالهم
 ويبقى لهم هم السيادة في تلك القطائع يفصلون في خصومات
 الناس ويتولون حمايتهم من عدوان غيرهم عليهم . ولذلك كانوا
 يقيمون في أراضيهم الحصون ويشيدون القلاع ويتخذون الجند
 والحرس ويحبون الضرائب وكثيرا ما كان يشتد بأس واحد من
 هؤلاء الأشراف ويكثر أعوانه فيطمع في ملك من يجاوره فيشن
 عليه الغارة ويغزو أرضه ويضم قطيعته الى ملكه . ويعرف هذا
 النظام باسم النظام الإقطاعي .

وكان عهد الإقطاع مملوا بالحروب الأهلية المتسلسلة التي
 يشيرها الأشراف بعضهم على بعض فلا تكاد تخبو نار الحرب
 في ركن من أركان الدولة حتى تدور رحاها في جانب آخر من
 جوانبها . ولقد عانى الملوك المصلحون الذين جاءوا بعد ذلك عناء
 عظيما في القضاء على هؤلاء الأشراف والتخلص من امتيازاتهم
 وإعادة الرخاء والسلام الى بلادهم التي أربقتها حروبهم وأغت
 أهلها نظام السخرة الذي كان منتشرا في عهد سلطانهم .

ولقد بقي هذا النظام سائدا في فرنسا حتى أدركه لويس
 الحادى عشر (١٤٦١ - ١٤٨٣) فجعل دأبه أن يستعيد السلطة

من أشرف فرنسا ويركزها في يد الملك ، ولقد أصاب في هذا المسعى شيئا كثيرا من التوفيق . فلما أصبح الأمر لرشليو (١٦٢٤ - ١٦٤٢) كاد يأتى على مايقى من نفوذ الأشرف بما سن من المرسومات التى اتخذ سلطانهم وتهدم شوكتهم حيث أمر بإزالة الحصون والقلاع ونظم جيشا مستديما يركن اليه وقت الحاجة وجاءت الضربة القاضية عند ما استبدل بالأشرف غيرهم في جميع الأقاليم ووضع مكانهم حكاما ينصبون من قبل الملك مباشرة .

وجاء بعد ذلك لويس الرابع عشر فكان لا يرى في الأشرف الا أنهم زينة لمجالسه ومواكبه وبذلك قضى على كل استقلال كانوا يعتزون به ودعاهم اليه صاغرين في قصره بفرساي وعلمهم كيف يجب أن ينكروا أمام عظمته كل عظمة سواها ، وكيف يتقربون اليه بعبارات هى أقرب الى العبادة منها الى الملك . وهكذا انعدم نفوذ الأشرف حتى لم يبق لهم في عهد الملك لويس السادس عشر الا بعض امتيازاتهم القديمة لحقوق الصيد وجباية الضرائب الاقطاعية واختصاصهم ببعض المناصب السامية وإعفائهم من دفع الأموال الأميرية ، ولقد كان الأشرف يتمتعون

بهذه الامتيازات وأمثالها أيام سطوتهم ومجدهم في نظير ما كانوا يقومون به من الواجبات العامة كواجب الدفاع والنظر في خصومات الأفراد وغير ذلك . وكان الشعب يفضي عن تلك الامتيازات المرهقة ولا ينازعهم فيها لما كان عليهم أن يقوموا به نحوه من الخدمات . فلما ضعف نفوذهم وهلك عنهم سلطانهم ، وتولت الحكومة عنهم حراسة الشعب والقيام على مصالحه واستنارت عقول الشعب بما كتبه الفلاسفة ، كان بقاء امتيازاتهم لهم تحديا لشعور الطبقات الأخرى وإحراجا لصدورهم وأثقالا لما يقع على كواهلهم من التكاليف العامة ؛ وكان ذلك من أهم العوامل التي حركت الثورة في نفوس الناس ودفعتهم الى المطالبة بالغاء هذه الامتيازات ، ثم بمطاردة أصحابها وتعقبهم حتى لم يبق على ظهر فرنسا منهم شريف .

(٨) حقوق الأفراد :

في ٢٦ أغسطس سنة ١٧٨٩ قررت الجمعية الوطنية في فرنسا مبادئ « حقوق الانسان » لأنها رأت أن ما يتزل بالمجتمع الإنساني من المصائب والشقاء وفساد الحكومات يرجع الى سبب واحد وهو جهل هذه الحقوق أو تجاهلها أو العبث بها ، فأصدرت الجمعية بها يانا عاما يكون أساسا لمطالب الشعب وقواما لنصوص

الدستور وضمانا لسعادة المجموع ؛ وكانت أول قاعدة قررتها الجمعية أن الناس يولدون ويعيشون أحرارا متساوين في الحقوق . ثم قررت غير ذلك من القواعد ولكنها كلها جاءت تخصيصا بعد تعميم وتفريعا من هذا الأصل الشامل ؛ اذ نص فيه على حقين من أظهر حقوق الانسان وأهمها أعنى حق الحرية . وحق المساواة .

واذا ذكرت الحرية فلا ينبغي أن يخطر بالبال أنها الحرية المطلقة ، فالحرية المطلقة ليس لها الا معنى واحد وهو الفوضى . إذ لو ترك كل انسان يفعل ما يشاء دون أن يحول بينه وبين غرضه حائل فإنه سيرى نفسه في أقرب حين وقد تعارضت رغبته مع رغبات غيره ؛ والأمر يومئذ للقوى القادر فهو وحده الذى يتمتع بالحرية المطلقة ويبقى حوله العجزة الضعفاء وليس لهم من الحرية الا ما يتركه لهم الأقوياء .

وكذلك المساواة فهى مستحيلة على إطلاقها اذ الفروق بين بنى الانسان كبيرة وليس فى استطاعة أية سلطة محوها مهما بلغ تفوقها ما دامت الطبيعة قد فرقت بين الناس فى المواهب والمدارك .

اذن لا بد من تحديد الحرية وتحديد المساواة بما يتفق مع المصلحة العامة لا مصلحة الأفراد .

فالحرية الصحيحة الممكنة هي أن يكون لكل انسان الحق في أن يفعل ما يشاء ما لم يترتب على فعله انتقاص حرية الغير .
والحرية بهذا المعنى لا تنافي وجود السلطة بل هي لا تتم إلا بها ،
اذ هي الكفيلة بمنع عدوان الأفراد بعضهم على بعض ، ووقف
حرية كل فرد عند الحد الذي لا تتعارض فيه مع حرية غيره .

وللحرية مظاهر متعددة أهمها :

(١) الحرية الشخصية — وهي أن يكون الانسان حرا في غدوه ورواحه وألا يكون عرضة للقبض عليه ما لم يكن
لذلك مسوغ من القانون .

(٢) حرية المسكن — وذلك ألا يساح لأحد الدخول
في مسكن من المساكن الخاصة إلا في الأحوال التي يميزها
القانون .

(٣) حرية الملك — أن يكون الانسان حرا في اقتناء ما يشاء
وألا يحرم منه إلا بمسوغ من القانون .

(٤) حرية العمل والصناعة والتجارة — وهي أن يكون
للانسان أن يشتغل بما يشاء من الأعمال وأن يتجر بما يشاء من
السلع إلا ما حرمه القانون .

(٥) حرية الفكر — أن يعتنق الانسان ما يشاء من العقائد ويجاهر بأفكاره قولاً وكتابة في حدود القانون وتشمل حرية الفكر حريات أخرى كحرية الدين ، وحرية الاجتماع والصحافة ، وحرية التعليم والتعلم .

أما المساواة فقد اتفق الناس كذلك على تحديدها وقالوا بوجودها في الأحوال الآتية :

(١) المساواة في القانون — بحيث توضع نصوصه لكل الناس وما يقرره القانون بحق يكون حقاً للجميع على السواء .

(٢) المساواة أمام القضاء — فلا ينبغي أن يميز في المعاملة بين الغنى والفقير ولا أن توجد جهات قضاء مختلفة للطوائف المختلفة .

(٣) المساواة في الضرائب — فيشارك فيها جميع الأفراد كل بنسبة ثروته .

(٤) المساواة في الوظائف — بأن تكون حقاً للجميع على السواء متى توفرت فيهم الكفاءة المطلوبة فلا يحول دين الانسان أو رأيه أو انتمائه الى طبقة خاصة من أن يشغل أى منصب من مناصب الدولة تؤهله له كفاءته .

الباب الثاني

أسباب الثورة الفرنسية

الفصل الأول

حالة الشعب الفرنسي قبل الثورة

(١) التفرقة بين الطبقات :

كان الشعب الفرنسي ينقسم الى ثلاث طوائف متميزة :
(الأولى) طبقة الأشراف . (والثانية) طبقة رجال الدين . (والثالثة)
طبقة العامة .

فأما طبقة الأشراف فإنها كانت لا تزال تتمتع بكثير من
امتيازاتها التي ورثتها عن عهد الإقطاع والتي كانت في مقدمة
ما يشكوه الشعب الفرنسي من آثار العهد القديم . ولقد اطلعت

على كراسه احتجاجات قدمها أهالى منطقة (كاركاسون) الانتخابية الى الملك لويس السادس عشر وضمنوها بيان شكاياتهم المختلفة -وليس أفصح من هذا المستند التاريخي فى الدلالة على ما كان عليه الشعب الفرنسى فى ذلك العصر من سوء الحال - وها أنا أنقل اليك ما جاء فى هذه الكراسه لتسمع بأذنك أنه من تلك الأثبات البائسة التى كانت تذهب أدراج الرياح :

« إن الطبقة الثالثة من منطقة كاركاسون تريد أن تقدم الدليل الثابت على ولائها واحترامها للمليكها المحبوب وأن تتعاون مع الأمة بأسرها فى تدارك النكبات المتعاقبة التى حلت بالبلاد وخيمت عليها منذ زمان بعيد أملا منها فى إحيائها وأستعادة مجدها التالذ بأن تصرح بجلالتكم أنها على يقين من أن سعادة الشعب مرتبطة بسعادة مليكه وثبات حكومته والمحافظة على النظام والقانون .

« ونظرا لما فى تقدير الدين واحترام الحرية المدنية والمحافظة على حقوق الملكية والاستناد الى أساس عادل فى تقدير الضرائب وفرضها واتباع وسائل الاقتصاد فى نفقات الحكومة ، والأخذ بسبل الإصلاح فى جميع فروع الإدارة من العوامل التى لا بد من توافرها لصيانة الحكومة الملكية واستقرارها ، نتقدم الطبقة الثالثة من منطقة كاركاسون الانتخابية بكل خضوع الى جلالتم راجية أن

توضع هذه المسائل كلها موضع اعتباركم السامى وتوزن بميزان تقديركم الحكيم لينشرح صدر الشعب بقيام دليل على اهتمامكم بشئونه وتوليكم له بحسن رعايتكم .

« ولما كانت قد صدرت أوامر جلالتم بوجوب رفع شكاياتنا الى مسامعكم الأبوية وعرض ما يلتمس لها من وجوه العلاج فانا نعتقد أننا نقوم بالواجب علينا حينما نلجأ الى ما يكتنه صدركم من العطف والعدل نحو شعبكم بعرض ما يأتى :

(١) ينبغى ألا يقام جهازا من الشعائر الدينية إلا ما كان خاصا بالمذهب الكاثوليكي .

(٢) ولكن لا ينبغى أن يكون لذلك أدنى مساس بما لغير الكاثوليك من الحقوق الدينية .

(٣) ينبغى أن يوقف دفع ما هو مفروض على فرنسا للبابا من المخصصات السنوية .

(٤) ينبغى ألا تفرض على الأمة ضريبة إلا بعد موافقتها على محصيلها .

(٥) وأن يوضع نظام معين محدود لانعقاد الجمعية العمومية .

(٦) ولكى يتوفر للطبقة الثالثة ما هو حق لها من الدفاع عن مصالحها ينبغى أن يؤخذ عند الاقتراع على المشروعات بنظرية التصويت الفردى .

(٧) لا حق لطائفة أو جمعية أو فرد فى أن يعفى من دفع الأموال الأميرية بل ينبغى أن يكون نظام الضرائب عاما على الجميع .

(٨) ينبغى أن تلغى القيود التى تحرم أهل الطبقة الثالثة من الحصول على بعض الوظائف والرتب التى تعتبر للآن وقفا على الأشراف وذريتهم . ولا بد من صدور قانون يفسح لأهل الطبقة الثالثة طريقا الى هذه المراكز ما دامت تتوفر فيهم الكفاءة لها .

(٩) نظرا لما بين الحرية الفردية والحرية القومية من الصلة الوثيقة نتمس من جلالة الملك أن يوقف العمل بنظام (الخطابات المختومة) التى تقضى على الحرية الفردية وترمى الى السجن بأى إنسان من غير تحقيق ولا محاكمة » .

هذا بعض ما ورد فى تلك الكراسة من المطالب وكل واحد من هذه المطالب يعتبر علاجاً لشكاية من شكايات الشعب .

(٢) الخطابات المختومة :

ولكى تقف على تاريخ هذه الخطابات المختومة التى ورد ذكرها فى الفقرة الأخيرة وتعرف مقدار خطرها أورد لك فيما يلى ترجمة .

الاحتجاج الذى قدمته إحدى المحاكم الفرنسية للملك لويس الخامس عشر فى شأن رجل اسمه "موزا" اتهمه جباة الضرائب بالتهريب فحصلوا من الملك على (خطاب مختوم) استعانوا به على القائه فى السجن حيث بقى عشرين شهرا ثم خرج فرفع الدعوى على أولئك الجباة يطالبهم بتعويض مالى باهظ نظرا لأنه حبس ظلما لمجرد اشتراكه فى الاسم مع غريم الجباة الذى كان يقصد حبسه . فلما قضت له المحكمة بالمبلغ الذى طلبه احتسب الجباة (يجلس الملك) فألقى الحكم . فأحدث ذلك فى نفوس الناس ولا سيما المحكمة التى أصدرت الحكم اشمئزا ترى مرارته فى عبارة الاحتجاج التالية التى وجهتها للملك على أثر هذا الحادث :

« مولاي :

نظرا لما يحول دون قيام هذه المحكمة بواجبها القضائى من العقوبات الغير الشرعية والتى لا يمكن أن تصدر عن جلالكم شخصيا . نرجو أن نرفع بكل خضوع واحترام هذا الاحتجاج .

قبض جباة الضرائب على رجل اسمه "موزا" من غير مراعاة الاجراءات القانونية التى يجب اتباعها فى مثل هذه الأحوال . وألقى الرجل فى السجن بعد ذلك بقليل حيث قضى عشرين شهرا . وكان ذلك بناء على أمر صادر باسم جلالكم ولسنا نقدم هذا

الاحتجاج على طول المدّة التي قضّاها ذلك الرجل في سجنه ولكن ذلك السجن يشتمل على حفر معتمة أعدت للجرمين الذين صدر عنهم عفو بعد الحكم عليهم بالاعدام وكان سبب العفو اعترافهم على زلاتهم الذين اشتركوا معهم في جرائمهم. وأهل الدافع الى الحكم عليهم بالحياة في هذه الحفر هو حملهم على أن يختاروا لأنفسهم الموت راضين بعد صدور العفو عنهم. ولما كان لا بد من توصيل شيء من الهواء الى تلك الحفر مع بقائها في ظلام حالك ركبت فيها أنابيب توصل اليها القليل من الهواء دون أن تسمح بنفاذ شيء من الضوء وكان يشد وثاق أهل تلك الحفر الى جدرانها بسلسلة ثقيلة ؛ ولم يكن يسمح لهم فيها بغير شيء نافه من القش والخبز القفار . ولا شك أنكم ترون جلالكم أن تهمة التهريب لا تكفى لأن يطرح انسان في هذا القبر المريع شهرا واحدا .

ولقد روى "موزا" نفسه — وأيد قوله الشهود — بأنه بعد إخراجه من هذا الكهف الدفين أدخل غرفة أخرى أقل منه ظلاما وقضى فيها زمنا غير قصير . ولقد كان هذا الاحتياط لصالح السجين نفسه فقد دلت التجارب الأليمة السابقة على أن من الخطر البين أن يبعث الانسان دفعة واحدة من جوف تلك الحفر الى ضوء النهار والهواء الطلق .

فلما خرج مونرا من سجنه رفع الدعوى على الجباة يطالبهم بالتعويض على ما وقع له لا سيما وهو ما برج يؤكد أثناء سجنه وبعد ذلك أنه لم يكن هو المقصود بالسجن ولا شك أن جلالتم وأتم تصدرون أمر الحبس لم يكن فى نيتكم أن يبقى المتهم تزيل السجن زهاء عامين حتى تجتمع الأدلة على إدانته .

ومع ذلك فقد جرت عادة الجباة كلما اتهموا إنسانا بالتهريب وأعوزهم الدليل القاطع على إثبات التهمة عليه أن يلجأوا الى استصدار أوامر جلالتم المعروفة باسم « الخطابات المختومة » لتوقيع العقاب على ذلك البائس .

وهكذا تكون هذه الأوامر التحكيمية سببا فى انتهاك أقدس الحريات ويسير ضحيتها الى قبره وهو لا يعلم من الذى يطارده . فاذا كان يستطيع من يحصل على هذه « الخطابات المختومة » أن يحتذى بجلالتم من أحكام القضاء فكيف يتسنى لنا يا مولاي أن ندعى أننا نعيش فى حماية القانون وتحت ظله لا سيما بعد أن كثر استعمال هذه « الخطابات » وأصبحت تمنح لكافة الأغراض ولا اعتبارات شخصية محضة . لقد كان استعمال هذه الخطابات يا مولاي فى بدء الأمر قاصرا على الحالات السياسية وكان من واجب المحاكم إذ ذاك أن تحترمها وترضع لأحكامها ولكنها لم تلبث

أن تطورت فأصبحت تمنح في حالات خاصة يتأثر فيها الملك بدموع أسرة تخشى على سمعتها الفضيحة والعار (كما كان يحدث عند ما يلوث بعض الأبناء سمعة أسرهم بسوء سلوكهم) . أما اليوم فقد أصبحت ضرورة لازمة كلما لحقت بعض ذوى الاعتبار أية إهانة من أحد العامة كأن ليس لدى هؤلاء (المعتبرين) ما يكفيهم من الامتيازات !

وإن كثيرا من هذه الأوامر التي توقعونها جلاتكم تحمل من الأسماء النكرة ما لا يمكن أن يكون قد وصل يوما الى سمع جلاتكم وذلك لأنها تحت تصرف وزرائكم بل وكتاب وزرائكم أيضا كما يبدو من كثرة ما يوزع منها . ولا شك أنها أصبحت تصل الى كثير من الأيدي بعد أن رأيناها في يد الجبابة . وفي يد عملائهم ووكلائهم .

والنتيجة يا مولاي أن أحدا من أفراد رعيتكم لن يشعر بأنه آمن على حريته مع وجود هذه « الخطابات » إذ من ذا الذي يدعى العصمة من الوقوع يوما ما فيما يدعو الى غضب بعض الوزراء أم من ذا الذي تبلغ به الضعة أن لا يحثك بكتاب أو عامل من عمال الخراج ؟ سوف يأتي يا مولاي ذلك اليوم الذي ترون فيه من سوء أثر « الخطابات المختومة » ضرورة القضاء على هذا النظام الذي

لا يتفق مع قوانين المملكة وروح الحرية التى يجب أن يتمتع بها
رعاياكم . اهـ .^(١)

(٣) حق الصيد :

ولقد تردّد على فرنسا فى تلك الفترة سائح انجليزى اسمه
أرثرينج (Arthur Young) ووصف حالة الشعب الفرنسى ،
وما كان فيه من الجهل والظنك ؛ وحالة بعض البلاد وما كانت
عليه من الحقارة والقدارة . وفيما يلى بعض ما كتبه عن حق الصيد
الذى كان يتمتع به الأشراف :

كان الملك يمنح أمراء بيته حق الصيد فى ضيعة من الضياع
لا هى من ملك الملك ولا هى من ملك الأمير . وكان معنى هذا
الحق أنه يصبح محظورا على أى انسان غير هذا الأمير أن تمس يده
شيئا من الصيد الذى يوجد بهذه الضيعة طيرا كان أم وحشا .
وكثيرا ما كان ذلك سببا فى تلف الزراعة كما كان أيضا سببا فى تعمير
السجون بأصحاب الحقول التعساء الذين كانوا يقدمون على قتل تلك
الحوانات إبقاء على ما تخرجه الأرض من طعام نزلهم ولأبنائهم
البائسين .

وكان يتم هذه الحقوق عدة لوائح توجب على أصحاب تلك الضياع أن يحافظوا على الصيد فكان ممنوعا عليهم تنظيف الحقول وتنقيتها مما ينبت فيها من الحشائش خشية تنفير أفراس الطير وكان محظورا تسميد الحب خشية أن يكون فى ذلك أذى للطير وكان لا يجوز قطع البرسيم وغيره قبل موسم خاص كان تأخره يضر بكثير من الحاصلات كما كان لايسمح بتقليع الجذور من الأرض اذا كان بقاؤها ينفع الطير كمشوى تؤوى إليه .

(٤) تعاسة العامة وبذخ الأشراف .

ذلك ماقاله (يونيغ) عن حق الصيد . ودونك ماقاله أيضا عن باريس ووصف شوارعها فى سنة ١٧٨٧ :

« إن هذه المدينة العظيمة هى آخر مدينة تصلح للإقامة فيها بين كل المدن التى زرتها . فالطرق غاية فى الضيق . وكثير منها شديد الازدحام وتسعة أعشارها قدر وكلها من غير إفريزيسير عليه المسارة فى راحة واطمئنان والمشى الذى يمتاز فى مدينة لندن بأنه لذيذ نظيف حتى إن السيدات يخرجن للترويض به كل يوم هو فى هذه المدينة عناء ومشقة تتقل كاهل الرجال . أما السيدات فن المستحيل أن تقدم منهن واحدة على هذه الرياضة وعليها ثوب

نظيف . والعربات كثيرة العدد ولكن ما هو شر من ذلك كثرة العجلات ذات الحصان الواحد التى يسوقها (فتيات العصر) كالمجانين ، بسرعة مزعجة تجعل عابر السبيل فى خطر محقق . ولقد شاهدت بعينى إحدى هذه العجلات تدس صبيا وربما تكون قد أزهقت روحه .

أما عن نفسى فقد كثرت ما أصابنى من رشاش الوحل الذى ترمى به هذه العجلات » اه .

وليس أفكه بعد هذه الصورة القذرة من أن أقدم لك رسالة كتبتها (مدام دى سيفينى) تصف فيها سويغات من زيارة قام بها الملك لويس الرابع عشر لقائده العظيم (أمير كوندى) فى (شانيل) كما ترى الفرق بين حياة الطبقتين . حياة العامة . وحياة الأمراء وعن رأسهم الملك :

« وكان الطريق مفروشا بزهر النرجس ، وسار كل شئ على ما يرام ، ثم جاء العشاء ولم يكف الشواء نظرا لحضور ضيوف لم يكن يتوقع أحد حضورهم ، فطار لذلك لب (فاتيل) — أمير الطهاة — ولقد سمعته يصبح أكثر من مرة . (لقد قضى على شرفى ولن تقوى نفسى على احتمال هذه النكبة) وسمعته يقول (لجورفيل) . "أحس بنحى يسبح فى جوف رأسى . لم أنم منذ اثنتى عشرة ليلة .

ساعدنى فى تنفيذ أوامرى“ . فواساه جورفيل بأرق الحديث ، ولكن الشواء الذى لم يقدم على المائدة — لا مائدة الملك ولكنها المائدة الخامسة والعشرون — كاد يذهب بعقله .

وحمل جورفيل الخبر إلى القائد الأمير . فذهب (كوندى) إلى غرفة (فاتييل) الخاصة . وقال له : ” كل شىء على ما يرام يا فاتييل . ولا شىء أحسن من عشاء الملك هذا المساء “ . فأجابه شيخ الطهاة :

— ” يا مولاي إن رقتك تجبلنى . إني أعرف أن الشواء لم يقدم على مائدتين ! “ .

— ” لا شىء من ذلك يا رجل ! لا تزجج خاطرك . إن كل شىء على ما يرام ! “ .

وانتصف الليل ، ولم تنجح الألعاب البارية لأن سحابة ظللتها . وكانت تكاليف هذه الألعاب ١٦,٠٠٠ فرنكا) وفى الساعة الرابعة صباحا كان فاتييل حائرا حائما يحول فى كل مكان والناس جميعا فى سبات عميق . فالتقى بمتعهد صغير ومعه حملان من السمك فسأله : أهذا كل شىء ؟ فأجاب الرجل : نعم يا سيدى ! ولم يكن يعرف أن فاتييل أرسل الى جميع الموانى الفرنسية فى طلب السمك لوليمة الملك . وانتظر فاتييل قليلا ولكن لم يرد من المتعهدين الآخرين

أحد . فاضطربت أعصابه وظن أنه لن يحصل على غير ما حمل إليه هذا المتعهد من السمك ، والتقى بجورفيل فقال له . "لن أستطيع الحياة يا سيدى بعد هذا الخزى العظيم " . فضحك من كلامه جورفيل . غير أن قاتيل صعد الى غرفته ووضع سيفه فى الباب ثم أقبل عليه بصدرة فأغمدته فيه . ثم خر على الأرض قتيلًا !

وفى خلال ذلك كان السمك يتوافد من كل فج والناس يبحثون عن قاتيل لتوزيعه . فصعدوا اليه فى غرفته وطرقوا بابها ثم كسروه فوجدوا المسكين غارقا فى دمه ، فأرسلوا الى الأمير فتماكه اليأس وحمل الخبر الى الملك العظيم وهو يقطر حزنا . واتفق الجميع على أن المأساة ترجع الى أن مستوى الشرف الذى كان يعمل قاتيل بمقتضاه كان من السمو بمكان وامتدحوا شجاعة الرجل ! وان كان لم يخل من لومهم إياه . وقال الملك إنه أحر موعد هذه الزيارة خمس سنوات لعلمه بما سوف تحدثه من المشقة الهائلة ثم قال للأمير إنه كان ينبغي عليه أن يعد مائتين اثنتين دون أن يتحمل كاهل نفسه بحمل مسئولية كل انسان وانه لن يسمح للأمير بأن يفعل ذلك مرة أخرى ! ولكن هذه التدابير جاءت متأخرة جدا بالنسبة لقاتيل المسكين . على أن جورفيل حاول أن يسد مسد قاتيل ونجح فعلا فى ذلك فكان الغذاء فائرا ، وكذلك كان العشاء . ولقد قام الجماعة فشاوا

ولعبوا وخرجوا للصيد . وكانت رائحة النرجس تملأ الجو ، وكان كل شيء على ما يرام ! ”^(١) .

هكذا كان الفرق جسيماً بين حياة الطوائف في فرنسا . فالأمراء والملوك في كظة متخمة والعامّة من تحتهم في نخصة مؤلمة . وهكذا كان يعيش أهل الطبقة العليا على لحوم الطيور المغردة ، ويسرون على أوراق الزهر الناضرة بينما كان أهل الطبقة الدنيا يعيشون في بيوت كأوجار الكلاب لا مداخل لها ولا نوافذ . ويخطرون في أسمال بالية لا شبيه لها إلا صبرهم الممزق النافذ مما هم عليه من سوء الحال !

(٥) الفوضى العامة وفوضى الضرائب :

وخلاصة القول أن فرنسا لم تكن تشكو في سنة ١٧٨٩ فساد النظم فيها ، ولكنها كانت تشكو عدم وجود شيء من النظم . كانت تشكو الفوضى في كل شيء ، الفوضى في الحكومة حيث كان للبلاد مجلس نيابي ولكنه لا يجتمع ، والفوضى في المجتمع حيث كان الأشراف يتمتعون بامتيازات عهد الإقطاع ولا يقومون بشيء من عمل أمراء الإقطاع ، والفوضى في الضرائب حيث كانت تجبي



لويس الرابع عشر

من فريق دون فريق وتجي في أوقات لا يعرفها إلا الجبابة ،
وبمقاديرهم الذين يقدرونها حسب أهوائهم ، والفوضى في القوانين .
حيث كان لكل ولاية قانونها الخاص الذى يخالف قانون جاراتها ،
والفوضى في التجارة حيث كانت تجبى الرسوم والجمارك على السلع
التي تنتقل من ولاية الى أخرى كما لو كانت خارجة من حدود البلاد .
كلها أوداخلة اليها .

على أن أقسى صنوف هذه الفوضى كانت فوضى الضرائب ،
فقد كان توزيعها غاية في الظلم وسوء التدبير ؛ كان الأشراف
يملكون نصف أرض فرنسا تقريبا وهم لا يزيدون عن ٣٠٠,٠٠٠
بينما كان النصف الثانى ملكا للشعب وعددهم يربو على ٢٥ مليوناً .
ومع ذلك فكان الأشراف لا يدفعون شيئا من الضرائب على أرضهم
في حين كان يدفع الفلاح ضريبة ثقيلة فادحة عما يملك . ولقد
كان الفلاح يدفع هذه الضريبة على عقاره ويدفع ضريبة غيرها
على الملح اسمها (جابيل) وكانت الحكومة تحتكر بيع الملح في ذلك
الوقت وتفرض على كل انسان أن يشتري منه قدرا معلوما كل عام
سواء أكان في حاجة اليه أم لا حاجة له به . وكان الثمن على الرغم
من تحديد الحكومة له يختلف باختلاف الأقاليم . فأقبل الناس
على تهريبه من جهة الى أخرى وكانت تمتلئ السجون بمهربيه من

جزء ذلك . وليت الأمر كان قاصرا على ذلك ولكن كان على الفلاح أن يدفع ضريبة ثالثة للكنيسة، وضريبة أخرى للشريف . ولقد قدر أن الفلاح كان يدفع من كل مائة فرنك تصل الى يديه ٥٣ فرنكا للحكومة و ١٤ للكنيسة و ١٤ للشريف ، والنسعة عشر فرنكا الباقية هى التى كانت تترك فى يد المسكين لسد حاجاته وحاجات أهله^(١) .

ولكن مهما يكن من يؤس الفلاح الفرنسى فلا شك أنه كان أحسن حالا من أمثاله فى البلاد الأخرى عدا إنجلترا وانما قامت الثورة فى فرنسا دون تلك البلاد للأسباب الآتية :

(أولا) لما امتازت به النفسية الفرنسية من الخفة وسرعة التأثر . وتوفر عوامل الثورة الأخرى فى فرنسا (سوء تصرف الحكومات الماضية، وهبوط سمعة الملكية، وتأثير الكتاب والمفكرين ، وسريان عدوى الثورة الأمريكية الى فرنسا عن طريق المتطوعين الذين اشتركوا فى حرب تحرير أمريكا ، وغير ذلك من الأسباب التى ستفصلها فى الصفحات التالية) .

(وثانيا) لأن ما كان يتمتع به الشعب الفرنسى من الرفاهية النسبية فى عهد لويس السادس عشر ووزرائه الأول المصلحين

(١) تاريخ القرن التاسع عشر للاستاذين قام وحسنى .

آثار في النفوس الرغبة في المزيد فلم يكف يتنفس الشعب الصعداء
بعد لويس الخامس عشر ويتذوق طعم الحرية والاصلاح في بدء
حكم لويس السادس عشر حتى قويت رغبته في الحصول على
حقوقه كلها كاملة غير منقوصة . وقديما قيل :

* إن الطعام يقوى شهوة النهم *

الفصل الثمانى

حكومة فرنسا قبل الثورة

(١) لويس الرابع عشر يستنفد موارد بلاده :

لقد بينا فى الكلمة التى كتبناها عن نظام الإقطاع أن حكومة فرنسا ظلت تحت تأثير هذا النظام عصرا طويلا كانت السلطة فيه موزعة بين الأمراء، وأن لويس الحادى عشر تمكن من أن يرد على الملكية شيئا من هيبتها الضائعة . ولكن فرنسا بقيت تمزقها الانقسامات الدينية زماما طويلا ، وليس فى الناس من لم يسمع بكاترين دى مديشى أرملة هنرى الثانى ملك فرنسا وما وقع فى عهدها من الحوادث الفظيعة التى سببها تعصبها الشديد للكاثوليكية وعداؤها للهيغونوت (البروتستانت) وأخص هذه الحوادث بالذكر مذبحه سنت برنابيو سنة ١٥٧٢ التى قنى فيها ما لا يقل عن ٢٠,٠٠٠ بروتستانتى .

وبقى مركز الملكية فى فرنسا من جراء تلك القلاقل مزعزعا غير ثابت حتى أدركه هنرى الرابع سنة ١٥٨٩ فعمل على تثبيته بما أوتيته من الحزم وإصالة رأى فقضى على عوامل النزاع الدينى

الذى أنك قوى البلاد ، وسلك فى مناوآته للأشراف طريقا فعالا عنيفا سار على أثره فيه ريشليو ومزران فهذا بذلك لالويس الرابع عشر أحسن تمهيد حتى أنه لما استقل بالأمر كان لا يرتفع فى فرنسا كلها صوت الى جانب صوته ولا يعلو فيها رأس أمام عظمتة ، عنه وحده يصدر كل رأى نافذ واليه وحده يرجع الأمر كله . ولا شك أن هذا الملك العظيم آنس كل هذه القوة فى نفسه وعرف مقدار سلطانه وبأسه حين قال : ”الحكومة ! إني أنا الحكومة !“ بل إنه كان فوق ذلك كثيرا ! إنه كان الروح المحركة للسياسة الدولية فى عصره حتى ليسمى تاريخ القرن السابع عشر كله بعصر لالويس الرابع عشر !

ولكن لا ينسى المؤرخ وهو يصور عظمة لالويس الرابع عشر ويبين كيف آرتفعت سمعة الملكية فى عهده أن يصور كذلك مجهود الشعب الفرنسى التعس وهو يحاول تغذية كبرياء هذا الملك العظيم وإشباع أطاعه المنهومة ، وأن يبين كيف قبضت يد لالويس الحديدية على فرنسا وهى غصن أخضر وضرب درار ، نخلتها بالامراف وكثرة الحروب عودا يابسا وعينا ناضبة .

لقد نجح لالويس العظيم فى أن يجعل باريس عاصمة أوروبا وأن يملأ اسمه فراغ القرن السابع عشر بأكمله ، ولكنه لم يحصل

على ما حصل عليه إلا بدم شعبه وأمواله ، فلم تلبث تلك الجذوة الوهاجة التي أضرمتها أنفاسه القوية أن استحات بعد موته رمادا ولم يلبث ذلك الملك الواسع الذي كان يسنده عاتقه العريض أن .
انهار وأستحال أنقاضا .

(٢) لويس الخامس عشر :

(١) يقضى على سمعة الملكية

بينما كيف كانت فرنسا في عهد لويس الرابع عشر في حالة يرثى لها وكيف كانت تنأينا مفعجا تحت تأثير جراحها المنهورة ، ولكن أفاثها ضاعت وسط أناشيد النصر الذي أحرزه لويس ، وجروحها اختفت تحت أكاليل الغار التي غمرتها بها يده . بيد أن الدهر دار دورته وأنقضت أيام لويس العظيم فمات ودفن ، ودفنت معه أناشيده وأكاليله ، وأنكشفت فرنسا الكليمة المسكينة على حقيقتها بين يدي لويس الخامس عشر ، فاذا هي أضيع تركة وقعت لأعبث وارث ، فانه لم يكن يفكر إلا في نفسه وفي خليلاته وقضى عمره في عبادة شهواته ، وترك الملك لعشيقاته يدرنه كما شئت أهواؤهن المتقلبة .

وانقد انهارت السلطات المعروفة كلها في عهد هذا الملك الخليع ، فالملكية التي كانت عالية الرأس أيام لويس الرابع عشر والتي

اجتمعت في يدها كل السلطات تراخت وانتكس رأسها في عهده ولم يبق للملك أية سلطة على أحد من رعيته السابقة اللهم إلا رجال صيده وخيله . وأنحصرت في هذا الوسط الضئيل دائرة عمله حتى لقد كان يقال عنه يوم لا يخرج للصيد: ”إن جلالة الملك لا عمل له اليوم“ .

والكنيسة التي كان يصغر أمامها كبرياء الملوك والتي كان لها من السلطة ما جعل أحد العواهل العظام يقف تحت الثلوج بملابس التكفير ثلاثة أيام سويا وهو عارى القدمين أصبحت اليوم تغتبط أن ترمى في أحضان تلك الملكية المتداعية لتستمد منها النفوذ .

والفرسان من الأشراف الذين كان لهم من النفوذ ما يهز قوائم العرش تحت أقوى الملوك في الأجيال الماضية أصبحوا مشردين يأبى عليهم الملوك أن يتخذوا سروجهم وسيوفهم مرتزقا لهم ، وانزروا في ساحات البلاط الملكي ولاذوا بكنفه وباتوا بعد حياة البطولة والشهامة يتنافسون في ميادين الذلة والملق لينالوا الحظوة عند صاحب العرش^(١) .

(ب) الكتاب والمفكرون يكونون في ظل غفلته

رأيا عاما مستتيरा

ولكن إن تكن هذه السلطات قد انهارت فقد قامت على أنقاضها سلطات أخرى تتفق مع روح العصر وحاجاته ؛ فهناك قامت سلطة رجال القانون الذين نسجوا فيما بعد للثورة شرائعها ووضعوا قوانينها ، وهناك قامت سلطة رجال التجارة الذين تحكموا بأموالهم في مستقبل البلاد ، وهناك قامت كذلك سلطة أخرى كانت أقل السلطات ظهورا ولكنها كانت أبعدا أثرا ؛ تلك سلطة رجال الأقلام الذين خلقوا بكتاباتهم في فرنسا رأيا عاما . كانت أولى صفاته التشكك وعدم اليقين واتهام كل ما أحاط به من النظم بالفساد .

ولقد رأيت مثالا من كلام هؤلاء الكتاب فيما أورده لك عن روسو ونظرياته السياسية ولا يفوتني هنا أن أذكرك أسماء فولتير، ومونتسكيو، وديدرو، ودالمبير؛ لتعرف أى الأقلام تلك التى حملت لواء الديمقراطية أمام دول الأرض وسارت بالقفالة التى تتبعها ذلك الشوط البعيد .

فأما فولتير فهو تلك القوة الهائلة التى كان يرهبا كل ذى سلطان فى القرن الثامن عشر ، نشأ فى أواخر أيام ملك فرنسا العظيم

لويس الرابع عشر فلفت نظره ذلك السلطان الواسع وأنانية صاحبه الى حد مصادرة كل من يجرؤ على ادعاء شئ من السلطة سواء ؛ كما لفت نظره سلطان رجال الكنيسة وتعصبهم لمذهبهم الى حد تعذيب كل من يجرؤ على اعتناق أى مذهب آخر فسخر من هذه العظمة المزيفة التى تقوم على القهر واستهزاء بأصحابها وجعل دأبه مناهضة هذا السلطان الفشوم المستبد، وبدأ حياته وهو فى العشرين من عمره برسالة عرّض فيها بالكنيسة ولويس الرابع عشر وكان جزاءه عليها بضعة أسابيع قضاها فى سجن الباستيل ؛ ولكنه خرج بعد هذه الأسابيع القليلة وقد كتب على نفسه عهدا أن يجعل مواهبه وقفا على هدم تلك الأسوار التى تحجب من ورائها رجال الكنيسة والملك ويرمون من خلفها صواعق نقيمتهم على أعدائهم ؛ وأصبح فولتير فى عصره (رسول التسامح والاصلاح) ولكن كان للتسامح عند الكنيسة اسم آخر هو (الإلحاد) وكان للاصلاح عند الملوك اسم آخر هو (الثورة) ؛ فعاش فولتير فى نظر السلطات (ملحدًا نائرا) ولاقى منهم ما أعدوه من العذاب لللحدين النافرين . ولكنه عاش كذلك فى نظر الناس فيلسوفا حرا ولاقى منهم ما أعدوه من التعظيم والتقدير للفلاسفة الأحرار !

ولكى ترى مثالا من حملاته على رجال الدين وتقف على وجهة نظره فى الإصلاح ، أقتبس لك شيئا مما كتبه تحت كلمة «قانون» فى قاموس فلسفى صغير نشره سنة ١٧٦٤ :

[— كل ما هو خاص بالزواج ينبغى أن يرجع فيه الى السلطة المدنية ، وليس على القسيس إلا أن يبارك الزوجين .

— ينبغى أن يخضع القسس للحكومة لأنهم أفراد من الرعية التابعة للدولة .

— ليس فى مقدور القسس أن يحرموا أى انسان شيئا من حقوقه بدعوى أنه خاطئ ، فان القس يحكم كونه حتما من الخاطئين ينبغى أن يقصر عمله على الاستغفار للخطائين دون أن ينصب نفسه لمحاكمتهم .

— ينبغى على الموظفين والعمال والقسس جميعا أن يشتركوا فى دفع الضرائب للدولة لأنهم جميعا أفراد فيها .

— ليكن عقاب المجرمين نافعا ؛ إن الرجل الذى يشق لا يصلح لشيء ، أما الرجل الذى يحكم عليه بالأشغال الشاقة فانه يظل خادما لبلاده ويبقى مثلا حيا يتعظ به الناس .

— ينبغي أن يكون القانون واضحاً عاماً دقيقاً ، فإن آفة القوانين
تفسيرها .

— لا ينبغي أن تجبى ضريبة إلا اذا روعى فيها أن تناسب مع
موارد الشخص الذى فرضت عليه .

غير أن فولتير لم يكن فيلسوفاً جافاً كما اعتاد غيره من الفلاسفة
أن يمتازوا بالحقاف ، ولكنه كان ظريفاً فكها خفيف الروح
في كلامه بحيث تفتح له الآذان وتنشرح لوقع ملاحظاته الصدور
وكانت هذه الخاصة في أسلوبه أقوى دأمة قام دليها نفوذه الهائل
وتأثيره العظيم .

وأما منتسكيو فقد طاف كرميله فولتير بجميع الدول الأوروبية
ثم استقر في فرنسا ووضع كتابه الذى أسماه (روح القوانين) .
وقد جمع فيه توارىخ أنظمة الحكومات وأنواعها وعدد مساوى
كل منها ومحاسنه ونصح أخيراً بوجوب اشتراك الملك مع الأشراف
والعامة في حكم البلاد على مثال الدستور الانجليزى .

وأما ديدرو ودالمبير فقد تعاونا في وضع دائرة المعارف الفرنسية
التي كان لها أعظم أثر في نشر العلوم وثقيف الأذهان وإعدادها
لفهم المشكلات .



لويس الخامس عشر

(٣) ماري انتوانت ولويس السادس عشر :

(١) زوجين

نقول ماري ولويس ، وكان حقا أن نقول لويس وماري. لولا أن الأميرة كانت صاحبة اليد العليا في هذه الشركة وأنها ما لبثت أن غادرت أمها مارية تيريزا أمبراطورة النمسا ودخلت البلاط الفرنسي عروسا لولي عهد فرنسا لويس السادس عشر حتى جعلت زوجها تابعا لها وفردا من أفراد حاشيتها ؛ فلما انقضت أيام جده الفاجر لويس الخامس عشر ودوت في أرجاء القصر تلك الصبيحة القديمة « مات الملك فليحي الملك » . تقدمت هي على زوجها وتولت عنه حكم الشعب الفرنسي وأصبحت منذ ذلك الحين القوة المحركة لسياسة فرنسا والعامل الأكبر في وقوع ما ألم بها من الخطوب ؛ فهي التي تولت انتخاب سلسلة الوزراء الذين تعاقبوا في مستهل حكمهما لعلاج الأزمة المالية التي كانت تشكوها البلاد ، فلم يفلحوا وفتحوا للشعب بتناقض سياستهم سبيل التمرد والثورة ؛ وهي التي عينت (نكر) وزيرا ثم أقالته ثم استرجعته ؛ وهي التي أشارت باتباع وسائل القمع لمقاومة الجمعية العمومية بعد اجتماعها الأول ؛ وهي التي أشرفت على فكرة فرار الأسرة المالكة من فرنسا ؛ وهي التي رسمت الخطط بعد فشل هذه الفكرة لتحرير

حكومات أوروبا على رجال الثورة؛ وهى التى أوجت بما هو معروف فى التاريخ « بتصریح برزويك » ، وأوعزت بتهديد باريس بالتخريب والتدمير اذا لم يعمل رجال الثورة على إعادة الحال الى ما كانت عليه قبل الثورة ^(١) .

ولكن لندع الخوض فى هذا الحديث الآن ولنعد قبل الاسترسال فيه الى طفولة مارى أنتوانت لندرى كيف نشأت وانعرف أى الظروف تلك التى جعلتها ملكة على فرنسا لتلقى حتفها على يد ذلك الشعب الذى اختارت أن تحكمه .

كانت مارى أنتوانت ابنة مارية تيريزا امبراطورة النمسا ، وكانت النمسا فى ذلك الوقت على رأس الدول الأوروبية فى عظمتها وسلطانها ، وكانت لا تزال مصائر الشعوب رهن إرادة الملوك العظام وكان التملك عليها موضوع أحلام بنات القصور العريقة ؛ فجلست مارية تيريزا تداعب ابنتها يوما بسؤالها عن الشعب الذى تطمح الى التملك عليه ، فأجابها مارى أنتوانت أريد أن أحكم الشعب الفرنسى الذى حكمه هنرى الرابع ولويس الرابع عشر .



ماري انتوانت

وشاعت الأقدار أن تتفق هذه الأمنية مع سياسة لويس الخامس عشر الذى أراد أن يتخذ النمسا حليفة لفرنسا ضد بروسيا عدوته ، فلم ير وسيلة لتحقيق ذلك خيرا من تزويج حفيده وولى عهده من الأميرة النمساوية الشابة فبعث الى سفير فرنسا فى النمسا يستشف رأيه فى أمر هذا القران فجاءت إجابة السفير باعثة على أشد الاطمئنان والارتياح حيث قال فى معرض حديثه عن الأميرة - : ” إنها كاملة الجمال من خلق ومن خلق ، ذات ذكاء نادر وخلال سامية تفيض نفسها الشابة غبطة وابتهاجا وطربا وهى ميالة الى الحصول على رضا الناس ، وفيها من الخصال التى تكفل سعادة الزوج أبدعها وأوفرها “ .

فسر الملك الشيخ لهذا التوافق ولم تنقض على ذلك إلا أسابيع معدودة حتى أعلنت الخطبة رسميا ، ثم جاء موعد الزفاف وسافرت الأميرة الى زوجها ، ووصل موكبها الفخم الى ستراسبورج فى اليوم الثامن من شهر مايو سنة ١٧٧٣ حيث استقبلها عطاء البلاط الفرنسى ؛ ومن ثم سار الموكب الى فرساي بين الهتاف المتواصل والحفاوة البالغة . وفى ١٦ مايو سنة ١٧٧٣ احتفل بعقد الزواج ، وظلت الحفلات والمراقص قائمة أياما عديدة الى أن انتقلت الأميرة الى باريس فى ٨ يونيه بين أنخم مظاهر الهتاف والترحيب .

ولقد كان من نائر الأميرة بتلك الحفاوة التي لاقاها بها الشعب الفرنسي أنها كتبت الى أمها تقول: « لست أستطيع أن أصف لك يا أمي العزيزة مظاهر السرور والعطف التي أغدقت علينا ولقد كنا نصالح الشعب بأيدينا، وكان ذلك من أعظم بوائث السرور. وما أسعدنا إذ نستطيع أن نحصل على حب الشعب بذلك الثمن البخس ! ومع ذلك فليس ثمة أنفس من هذا الحب ؛ لقد شعرت بهذا ولن أنساه قط . »

والواقع أن تلك الأميرة الخلابة استطاعت أن تتمكن لنفسها في نفوس الفرنسيين بما كانت عليه من المحاسن والظرف وساعدها على ذلك ما هو معروف عن ذلك الشعب من تمجيده لتلك الخلال وتأثره بالمجاملة ورقة الشائل .

واستطاعت الأميرة كذلك أن تفتن رجال البلاط ونساءه وأصبحت في منزلها الحديد موضع عطف الجميع وإعجابهم .

غير أن ذلك الفوز الباهر لم يلبث أن أثار الغيرة في صدور الحساد أمثال (مدام دوبارى) خيلة الملك لويس الخامس عشر وغيرها فأخذوا يبدسون لها الدسائس وساعدتهم هى بتصرفاتها الطائشة ؛ فأنها على الرغم من كل ما عرفت عنها كانت لا تخلو من نقائص تشوب خلق أمثالها المدللان فكانت متشعبة الأهواء



ما دام دی باری

متقلبة التزعات ، وكانت نصفى أحيانا الى نداء أهوائها المجردة ؛ وقد وفدت على بلاط يموج بالزذيلة والخلال الفاسدة وهى طفلة لا تحسن خوض هذه الغمار الخطرة فكانت هذه الخفة من جانبها سببا فى إثارة عاصفة من الأقاويل والمفتريات حول سيرها وتصرفاتها ؛ وهى عاصفة لم تلبث أن جازت القصر الى الخارج ، وهبت بين طوائف الشعب تحمل ضربا شتى من الاتهام والقذف ، كانت سببا فى ازدياد سخط العامة على الملكية وأهلها كما ستراه مفصلا فيما يلى من الحوادث .

تلك كانت مارى اتوانت^(١) ولم يكن ألقى لها من زوجها ولى عهد فرنسا ، فانه لم يكن يسع نقائصها هذه إلا صدره السمع الواسع ، ولم تكن تطبق سمعتها المثلوبة غير أذنه الثقيلة القليلة الاكثرث ، ولا كان يحتمل حدتها العنيفة مثل طبعه البارد البليد . لقد كانت الأميرة كثيرة الزهو شديدة الكبرياء مبالغة الى الغزل واللهو فكان لا بد لها من الأصدقاء ، وكان لا بد لها من النلهى ، وكان لا بد لها أيضا من زوج ضعيف هادئ ينكسر على لين طباعه شذوذها ، ولكن الطبيعة حابتها الى النهاية القصوى فى منحها هذا الزوج المتمتع الذى لم يخلق لغيرها ، فإنه فضلا عن

(١) قضايا التاريخ الكبرى للأستاذ عان .

كل ما وصفناه لك به كان ذا ميزة عظيمة أخرى ؛ ربما كان من عدم اللياقة التاريخية ذكرها والافصاح عنها ولكن يكفيك أن تعلم أنه عولج من ذلك المرض وأنه استطاع أن يعاشر زوجته معاشرة الأزواج للمرة الأولى بعد سبع سنوات من زواجها ! ولقد بقى ذلك (الرجل المسكين) كما كانت تسميه الأميرة متأثرا طول حياته بتلك الحالة التي كان عليها في مستهل شبابه ولعلها تفسر كثيرا من طباعه التي اشتهر بها كعدم ثقته بنفسه ، وسهولة انقياده لغيره ، وأخذه بكل يد تمتد له ، وتقلبه تبعا لارادة كل ناصح^(١) ومشير .

بقيت ماري مع زوجها على هذه الحال حتى مرض جده الشيخ مرضه الأخير في أواخر أبريل سنة ١٧٧٤ ثم وافاه أجله المحتوم في العاشر من شهر مايو سنة ١٧٧٤ فهرعت الجموع الى القصر الملكي للتهنئة والتعزية ، وأقبل الشعب المضني يحيي العهد الجديد بعد أن ذاق في العهد الماضي صنوف الذلة والإرهاق . وأقبلت ماري انتوانت ويدها في يد زوجها فخرا على ركبتيهما داعيين ” اللهم سدد خطانا وتولنا بحمايتك فإننا سنحمل أعباء الحكم صغيرين جدا “ !

(١) الثورة الفرنسية (بلوك) .



“اللهم سد خطانا ! سنزل الحكم صغيرين“

ولقد كانا حقا صغيرين فان الملك كان في العشرين من عمره
أما الملكة فإنها كانت في الثامنة عشرة من عمرها ولم تك بعد بلغت
هذه العشرين .

(ب) ماري انتوانت ولويس السادس عشر

(ملكين)

انقضى بموت لويس الخامس عشر دور ولاية العهد وأقبل
دور الملك والسلطة ، انقضى دور العيث وجاء دور الجحد ،
وانقضى دور الخلق وجاء دور المسئوليات ! ولعل خير ما يصور لك
نفسية الملكين الشابين في هذه الفترة ما كتبه الملكة لأُمها
في الرسالة التالية :

شوازي في ١٤ مايو سنة ١٧٧٤

سيدتي وأماه العزيزة :

لا شك أن الكونت (ميربي) — [سفير النمسا الذي اختارته
مارية تيريزا ليكون مستشارا لابنتها الصغيرة في فرنسا] قد أخبرك
بتفصيل ما جرى فلقد ظل الملك حافظا لشعوره الى آخر لحظة من
عمره وكانت خاتمة حياته عبرة لمن شاء أن يعتبر ، ويخيل الى أن الملك
الجليد قد استولى على قلب الشعب فانه قبل وفاة جده بيومين قام

بتوزيع مائتي ألف فرنكا على الفقراء وكان لذلك أحسن الأثر؛ وهو منذ وفاة الملك يعمل من غير انقطاع ويحجب بخط يده على ما يكتبه له وزرائه الذين لم نتح له الفرصة لرؤيتهم بعد. وهو يرد كذلك بنفسه على رسائل كثيرة أخرى ومما لا شك فيه أنه يحب الاقتصاد وأن أقصى همه أن يوفر أسباب الرفاهية لشعبه وليس يوازي اهتمامه بالتعلم إلا رغبته في الاستفادة . وإني أسأل الله له في ذلك كل توفيق .

وإن الجمهور ليتطلع الآن الى كثير من التغيرات ولكن الملك اكتفى بأن أرسل مدام دوبارى (محظية جده لويس الخامس عشر) إلى الديروأن طرد من بلاطه كل من له اتصال بها .

ولقد منعت من أن أزور عمتي أديليد لأنها تشكو الحمى وألماً في وسطها ويخشون أن تكون قد سرت اليها عدوى الجدري وهي تقوم بتريض الملك الفقيد .

ولقد خولني الملك من السلطة بوصف كوني ملكة ما أستطيع معه أن أملأ جميع المراكز الخالية في حاشيتي .

وإني وإن كان الله قد منّ على بأن أولد لأشغل هذا المركز الذي أشغله اليوم لا أتمالك أن نتولاني الدهشة حيناً أرى المقادير

تختارَه رى بناتك لتجلس على أجمل عروش أوربا وإنى لأحس أكثر من قبل بكل ما أنا مدينة به الى عطف والدتى العظيمة التى تجشمت كل صعب فى سبيل إحراز هذا لى . وما أحسست يوما بما أحس به اليوم من الرغبة فى أن أطرح نفسى على قدميها وأن أقبلها وأكشف لها عن نفسى لترى الى أى حدهى مفعمة بالإجلال والحب وعرفان الجميل .

حاشية بخط الملك

إنى ليملائى السرور أن نتاح لى الفرصة يا أمى العزيزة لأعرب لك عن حبي وإخلاصى ؛ ومن لى بنصحك الغالى فى هذه الأيام العصيبة ! وإنى لأرجو أن أوفق الى ما فيه رضاؤك لأقيم من ذلك دليلا على مبلغ ما أنا مدين لك به من الشكر على إنعامك علىّ بابتك التى لا أطمع فى سعادة وراء ما أنا متمتع به معها .

خاتمة الرسالة بخط الملكة

لم يرض الملك أن أبعث اليك برساتى دون أن يخط لك فيها كلمة بنفسه وإنى لموقنة أنه كان يجب أن يكتب لك رسالة كاملة ؛ ولكنى أرجو أن يكون له عندك بعض العذر نظرا لكثرة ما يقوم به من الأعمال بله ما فى طبيعته من الخجل والحياء الشديد . وإنك

لترين يا أماء مما ختم به عبارته أنه على الرغم من شدة محبته لى حريض على ألا يغدق على من الثناء الفاتر ما تمتلئ به نفسى غرورا^(١) .

هكذا بدأ هذان الشابان حياتهما الملكية ! رغبة خالصة من الملك فى الاقتصاد وتوفير أسباب الرفاهة لشعبه ومعاونة قوية من الملكة فى تحقيق هذه الغايات .

ولكن ضعف الملك واستسلامه أفسح الطريق أمام المتطفلين على موائد الحكم فلم يلبث أن دخل فى ميدان العمل وزراء منافقون أنانيون ، وكنت فى زوايا القصر الملكى حاشية نفعية رجعية ، ثم غشى الجميع شعب هائج فاختلط فى الممعة الحابل بالنابل ، وانفجرت الفتنة على رأس الجميع .

ولكن عند انفجار الثورة لم يكن يفكر رجالها فى الوصول الى ما وصلوا اليه أخيرا ، وإنما جاءهم ذلك عرضا ، وكانت كل خطوة يخطونها تسوقهم الى التى تليها وهكذا ، فلم يكن أحد منهم يفكر مثلا فى أول الأمر أن يغير نظام الحكم الملكى ويستبدل به نظاما جمهوريا ، ولكنهم كانوا يريدون أن ينشئوا حكومة حرة تحت لواء الملكية وكانوا يريدون تنظيم الملكية لا تحطيمها ، ولم يكن يسعى أحد

الى استدعاء طبقات الشعب الجاهلة للاشتراك فى حياة البلاد السياسية، ولكن مبدأ سيادة الأمة الذى كان يبشر به الفلاسفة والكتاب هو الذى أدى الى نشر روح الديمقراطية وصب الحكومة فى ذلك القالب الجمهورى الذى هو الصورة الطبيعية لنظام الحكم الديمقراطى .

الفصل الثالث

موقف الطبقات حيال حركة الاصلاح^(١)

تقد كان لكل طائفة من طوائف الأمة موقفها الخاص حيال حركة الاصلاح التي بدأها لويس السادس عشر .

فأما الأشراف والاكليروس فكان جلتهم يريدون الاستمسك بالنظم العتيقة محافظة منهم على امتيازاتهم وحقوقهم ، وهؤلاء كانوا عامل السوء وعنصر الرجعية ونذير الشؤم والحراب الذى حل بالبلاد . ولكن كانت فيهم أقلية تأثرت بكتابات المفكرين وأشربت روح العصر الحديث وانضمت الى طبقات الشعب فى المطالبة بالمساواة وضحت فى سبيل هذه الدعوة بصوالحها وامتيازاتها .

وأما طبقة الفلاحين والعامة من أهل المدن فهم الذين كانت تدور عليهم ربحى البؤس وتطحنهم معاصر الشقاء ، عجااف أهزلهم جبابة الضرائب ، ضعاف أنقلهم تكرار وقوع القحط ، فكانوا يستندون الى كل يد تمتد اليهم . وصاروا لهذا السبب ألعوبة فى أيدي ذوى الغايات من الزعماء السياسيين الذين أنجبتهم الطبقة الوسطى .

وأما هذه الطبقة الوسطى فهي طبقة المتعلمين الذين بعد أن
هياؤوا أنفسهم للحياة وقف الأشراف في سبيلهم وسدت الامتيازات
طريقهم فحرموا من الوظائف والمراكز التي تؤهلهم لها كفاءاتهم
فاستعانوا بأهل الطبقة العامة ليكونوا عدتهم في نشر الفتنة وقلب
النظام .

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الطبقة هي التي بدأت الثورة
وأوقدت نارها وظلت المعركة قائمة بينها وبين أصحاب الامتيازات
زمنًا كان الشعب فيه خارج الميدان يكتفى بمشاهدتها والتحمس
لها فما هو إلا أن خرج من دور التحمس الى دور الاشتراك الفعلي
حتى طم سيله وجرف تياره جميع الطوائف الأخرى ؛ فأصبح
الحكم في باريس لرعاها ووقعت فرنسا كلها تحت سيطرة سوقها
وجهاها .

الباب الرابع

الثورة والقضاء على العهد القديم

من ٥ مايو سنة ١٧٨٩ — ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩

الفصل الأول

لويس السادس عشر والأزمة

ولى لويس عرش فرنسا سنة ١٧٧٤ كما أسلفنا فى العشرين من عمره وهو آخر من كان ينبغى أن يتقدم إلى تسيير سفينة الحكم فى ذلك الجوف العاصف وتلك اللجة الفوارة لو أن فى الأمر خيارا لمن يتولى الملك . ذلك لأن الأزمة التى كان حتما عليه أن يعالجها كانت تستلزم رجلا ثاقب الرأى ماضى العزيمة فشاعت الأقذار أن يتولى علاجها عديم الرأى خائر الهمة وأن يتزوج من خرقاء فضولية حمقاء ، وأن يلتبس المعونة بمن حوله فلا يصيب إلا كل نفعى رجبى يعمل لمصلحة نفسه أولا ثم يعكس على الملك رغبة



لويس السادس عشر

في الإصلاح ويحارى الملكة في خرقها ويدفع الشعب الهانج في سبيل الثورة خطوة جديدة .

(١) فترة الإصلاح :

وجلس الملك في بدء عهده يفكر فيمن يكون وزيرا له ورئيسا لحكومته فقرر رأيه أخيرا على تعيين (ماشولت) ولكن أخته مدام أديلاید تدخلت في آخر لحظة وأرسلت نفس الخطاب الذي كان معنيا به ماشولت إلى الكونت (موربا) وهكذا تم تعيين رئيس وزراء لويس السادس عشر^(١) .

وكان موربا هذا وزيرا في عهد الملك لويس الخامس عشر ولكنه أقصى عن الحكم وظل مغضوبا عليه بقية أيام ذلك الملك فلما رشحته مدام أديلاید لهذا المركز الجديد جعل أول همه أن يتشبث به وأن يرسم خططه السياسية بما يتفق مع هذه الغاية الشخصية فكان لا يمتنع أن يرجع اليوم في قضاء قضاه بالأمس متى آتس فيه خطرا على مركزه ولا يتردد في أن يخلع اليوم وزيرا عينه بالأمس في وزاراته متى أوجس منه خيفة على تقوده . وظلت سياسة فرنسا ترجح وتذبذب مع أهواء هذا الوزير حتى مات سنة ١٧٨١

فقلت الملكة بعده تسيير الأمور وتعيين الوزراء وكانت في إشرافها على الملك أشأهم من وزيره الذي عينته له أخته .

ترجو : (TURGOT)

غير أن موربا وإن كان في نفسه قليل الاهتمام بالاصلاح لم يكن يرى بأسا من أن يقوم غيره بما لا يكون في إجرائه خطر عليه هو شخصيا . فعين [ترجو] ليكون وزيرا للمالية في وزارته ، وترجو في ذلك اليوم أقدر أبناء فرنسا على تولى شئونها المالية وتنظيم إدارتها ، وكان دخل الدولة عند تولية الوزارة ٢١٣ مليوناً من الجنيهات والمنصرف نحو ٢٣٥ مليوناً . فكان العجز حوالى ٢٢ مليوناً ولكن لم تمض عليه في الوزارة سنة ونصف سنة حتى بلغ الوفور في خزائن الدولة نحو ١١ مليون جنيهاً . غير أنه لم يكن ليصل إلى هذه النتيجة السارة إلا بالتقير والاقتصاد وهذا مادعا إلى أن يغضب عليه رجال البلاط الذين لا مرتزق لهم من غير الاسراف والتفريط . وامستاء الأشراف كذلك وأوجسوا من سياسته الاقتصادية على امتيازاتهم وسخط عليه رجال الدين أيضا ولا سيما لأنه كان صديقا حميا لثولتير (الملحد) . وتصادف وقوع مجاعة زادت في سخط الأهلين على الحكومة . وكانت مدعاة لقيام الفتن والمظاهرات . وأوشك ترجو أن يتعرض مكره بما سارع الأشراف إلى اتهامه به عند الملك

من سوء التدبير وتجميله مسئولية الموقف . ولكنه نجح أخيرا في استعادة مكانته عند الملك والحصول على رضاه مرة أخرى حتى لم يتردد لويس في إعلان إعجابه بسلوكه والتصريح بأن ليس على ظهر فرنسا كلها من يحب الشعب الفرنسي غيره هو ... وترجو .

فتألب عطاء الأشراف والاكليروس على هذا العدو المشترك وتامروا عليه خشية أن يكون بقاؤه في مركزه قاضيا على نفوذهم وثارَت الحزازات في نفوس الوزراء وبخاصة كبيرهم موريا فعول على التخلص منه بأي ثمن كان . وشرع يتصداه في جميع مشروعاته واصلاحاته ولكن ذهبت جهوده كلها عبثا في هذا السبيل ولما أعيته الحيلة في حمله على تقديم استقالته بنفسه . لجأ الى الوقعة به والدس عليه . فاصطنع ورقة قلدها فيها خط ترجو وضمنها قذفا في حق الملك والملكة ثم قدمها للويس فتارها واحتد . وأقال من خدمته الوزير الوحيد الذي كان يرجي له الخلاص على يديه . وهكذا انسحب ترجو مكرها من ميدان العمل وأدركته منيته بعد ذلك بقليل (سنة ١٧٨١) م .

نِكر : (NECKER)

أسندت وزارة المالية بعد ذلك إلى نكر . وهو رجل سويسرى من كبار المالىين نشأ في مدينة جنيف بلدة روسو الكاتب القدير



ثم نزل بفرنسا كما فعل سلفه العظيم وكانت سمعته المالية الطيبة سببا في إسناد هذا المنصب إليه . أما خطته فكانت تركز على تدير دخل الدولة حتى يكفي حاجاتها العادية . فاذا قامت بالبلاد حاجة إلى مشروعات أخرى غير منظورة فالوسيلة إلى تحقيقها عقد القروض مع الدول الأخرى على أن تكون هذه القروض بأقل ربح ممكن . وكان لا بد لتحقيق ذلك من تحسين سمعة البلاد المالية فلجأ الوزير إلى خطة جديدة لم تكن اعتادتها البلاد من قبل وهي نشر حسابات الدولة على الجمهور حتى يطلع عليها الجميع وبذلك تنشأ الثقة المالية التي كان ينشدها . ولكي يضمن لهذا النظام أن يظل راسخا ثابتا رأى أن لا تجبى ضريبة جديدة إلا بعد موافقة الأهالي عليها . فكان عمله هذا تمهيدا لانعقاد [الجمعية العمومية] التي تعتبر في التاريخ نذير الثورة وفتحة عصرها .

ولقد كان من المتظر أن تتشع أمام هذه الخطة الحكيمة التي رسمها نكر أشباح الضيق المالى الذى كانت تعانيه فرنسا منذ زمان لولا اشتراكها في حرب استقلال الولايات الأمريكية وتورطها في ديون جديدة أفدحتها وكانت سببا في زيادة تحرجها وارتباكها . أما هذه الحرب فسببها أن إنجلترا أرادت فرض ضرائب جديدة على مستعمراتها الأمريكية فنازعتها المستعمرات في شرعية تلك .

الضرائب وانتهى الأمر بوقوع الحرب بينهما فنتوقع كثير من الفرنسيين للقتال في صف الأمريكيين انتقاما لفرنسا من عدوتها إنجلترا التي اغتالت كثيرا من مستعمراتها في (حرب السبع السنوات). وظل تيار المتطوعين يتدفق ويطنى إلى أن تخرج مركز الحكومة وأصبح من الحتم عليها أن تسير شعور الأمة . فتشترك اشتراكا رسميا في هذه الحرب وأخيرا شجعها على خوض غمار هذه المعركة ما حصل عليه الثوار من الانتصارات الباهرة التي لم تدع شكاف نتيجة الحرب وأنها سوف تدور الدائرة فيها على الانجليز . فقررت فرنسا الانضمام إلى الولايات الأمريكية ومن حسن حظها أن إنجلترا لم تفلح في الحصول على معاونة أية دولة من دول أوروبا . فكان أجل الحرب لذلك قصيرا . وخرجت منها فرنسا منصورة ظافرة . ولكنها خرجت كذلك وقد لوثت رجالها عدوى الثورة وأفرغت خزائنها تفقات الحرب .

وهكذا انعكست تدبيرات نكروتنقض غزله وبتدت الحرب في فترة قصيرة ما جمعه يده في الليالي الطوال (١٧٧٧ - ١٧٨١)م فلم ير أمامه مفرقا يرجع إليه إلا ما كان قد رسمه ترجو قبله من خطط الاقتصاد في الوظائف والاقلال من الامتيازات فكان جزاؤه على ذلك ما جوزى به ترجو أيضا من قبل واعتزل الخدمة سنة ١٧٨١ م .

(ب) الوزراء المفسدون :

استقال نكرومات موريا بعده بقليل وظهرت ماري أنتوانت علنا في ميدان السياسة والحكم . وكانت قد بدأت تفقد شخصيتها المحبوبة المحترمة في نظر الشعب الفرنسى لكثرة ماذاع حول اسمها من التهم بالحق وبالباطل فكان بعض الناس يتهمها بأنها تكره الشعب الفرنسى بسبب جنسيتها النسائية فبادلها كراهة بكراهة . وكان بعضهم يتهمها بتبديد مال الدولة على ملابسها ورياشها وخدمها وكلاهما فبادلها بتبديد مال بتبديد سمعة وكان بعضهم يتهمها بأنها تحقر الملك وتحونه فكان نصيبها منهم التشهير والتعير والاحتقار .

وولى وزارة المالية بعد نكر في هذا العهد الجديد من لم يقم فيها غير شهور معدودة أضاف أثناءها إلى ديون المملكة ٣ ملايين من الجنيهات ثم استقال .

بجاء بعده آخر وطالت إقامته حتى بلغت سبعة شهور كان كل عمل من أعماله في خلالها لسانا ناطقا بأن فرنسا تعلن إفلاسها للجميع وأخيرا جاء دوره فطرد وتقدم نساء البلاط بالرجاء إلى الملكة لتأمر بتعيين (كالون) وزيرا للمالية فم تعينه .

أما الرجل فكان أحمق وأجهل من ولى الأمر في محنة كالتى كان يجتازها الشعب الفرنسى في ذلك العهد ! جعل دأبه إخفاء

الحقيقة وهمه الأول إرضاء الملكة واجابة مطالب البلاط . وأكثر من الحفلات والزينات الى حد أدش الناس جميعا وألقى في روعهم أنه بزرجو في سياسة المالية وفاق نكر . ولكن تحقيقا أجرى بعد ذلك أسفر عن أنه عقد قروضا كثيرة . وأن العجز السنوى قد زاد زيادة عظيمة فنارت عليه الخواطر وأصبح موضع سخط الجميع واحتقارهم . فرقه الملك .

ورقى الوزارة بعده (برين) . وكان موقف البلاد المالى قد تعقد الى الحد الأقصى وبلغ ارتباكه الغاية التى ليس وراءها غاية فان الاقتصاد الذى كان خير علاج فى الماضى أصبح لا محل له فى الأزمة الراهنة . ولم يبق للنجاة غير طريق الضرائب وهو ما لا طاقة لدافى الضرائب إذ ذاك باحتماله . أو طريق القروض وهو ما ليس اليه من سبيل بعد ضياع سمعة البلاد المالية . أو طريق التضحية من جانب أصحاب الامتياز وهو ما جعلته أنايتهم حلما من الأحلام يراه الناس فى المنام .

وهكذا دفع برين قصر نظره الى ادخال رأسه راضيا مختارا فى هذم الشبكة المختلة وكانت تخبطاته سببا فى أن تتفق كلمة (برلمان باريس) — وكان بمثابة محكمة عليا — (ومجلس الأعيان) والهيئات الدينية . وعامة الشعب . على وجوب عقد الجمعية العمومية التى ما كادت



برين
(Brienne)

تجتمع حتى انصرفت وجهتها الى غير ما اجتمعت له وبدلا من أن تنظر في علاج الأزمة المالية دخلت مع الملك في نزاع سياسى أفضى الى عصيان أوامره والاشتباك معه في تلك المعركة الدموية الطويلة التى تعرف في التاريخ باسم الثورة الفرنسية .

وبيان ذلك أن برين تقدم الى برلمان باريس بمشروع قانون يقضى بأن تشترك طوائف الأمة جميعها في دفع الضرائب فرفضه البرلمان واستنكره . ولم يكن هذا البرلمان هيئة نيابية كما يتوهم القارئ من اسمه ولكنه كان هيئة مؤلفة من بعض رجال القانون يستعين بها الملك في إصدار أوامره . فنشأ أداة في يده ومصنعا لعمل المرسومات والقوانين . ولكنه لم يلبث أن انقلب على الملك حربا . ذلك أن المراكز فيه أصبحت تباع لمن يدفع للحكومة ثمنها ومن حق من يدفع أن يدعى لنفسه شيئا من السلطة . وكانت العادة قد جرت بأن لا يصدر عن الملك أمر إلا بعد تسجيله في هذا البرلمان وقرار أعضائه له . فاكسب الأعضاء بذلك صفة تشريعية لأنهم لو امتنعوا عن الموافقة على أى قانون لتعطل أثره وبطل فعله . ولذلك رأى الملك أن يحتاط لمقاومة البرلمان واعتراضه . فابتكر إجراء آخر وهو أنه اذا حضر بنفسه نظر قانون من القوانين فلا بد

للبرلمان من اقراره والمواقفة عليه ويعرف هذا الأجراء باسم (Lit de Justice) أو كما يسمونه "سرير العدل" .

ولقد انتشر هذا العرف في الأقاليم فأصبح لكثير منها برلمانات يرجع اليها قبل اصدار القوانين الخاصة بتلك الأقاليم . واكتسب أعضاء هذه البرلمانات من الامتيازات ما جعل مصالحهم في آخر الأمر تتضارب مع مصالح الملك والحكومة فانضموا الى قوة المعارضة التي كانت تحارب عسف التاج ووزرائه ولكن انضمامهم هذا لم يكن عن حب للشعب وتأييد لمطالبه وانما كان كما فهمت تحقيقاً لأغراضهم الشخصية ومحافظة على مصالحهم المادية .

وفي عهد لويس الخامس عشر أراد الوزير (موبو) أن يتخلص من هذه البرلمانات جملة واحدة لتنتقل يده في هذه البلاد بما يشاء سيده فقرر الغاءها وأنشأ مكان برلمان باريس هيئة أخرى مؤلفة من ٧٥ عضواً يعينهم الملك بنفسه وقد أطلق الناس على هذه الهيئة اسم (برلمان موبو) استخفاً بها وبمنشئها .

فلما مات لويس وسقط موبو ألح الناس في طلب هذه البرلمانات واعادتها فاعترض رجو وزير المالية على العودة الى تلك الهيئات الرجعية التي لم تكن تعرف غير مصالحها الخاصة . ولكن الشعب كان قد نسي عنها كل شيء . ولم يبق ماثلاً في ذهنه عنها.



إلا قوة معارضتها للملك وأنها كانت ضخمة من ضخايا استبداده . ولذلك أصر على إعادتها فأعادها موريا وزير لويس السادس عشر وهو لا يرجو بذلك إلا الخطوة عند الشعب والحصول على رضاه .

وأخيرا جاء برين الذي نتحدث عنه وعرض مشروعه الجديد على برلمان باريس هذا كما أسلفنا فرفضه البرلمان ولكن لويس استعمل حقه المعروف (سريير العدل) فوافق البرلمان على المشروع غير أنه قدم احتجاجا على تصرفات الملك ووزيره في هذا الموضوع وكان جزاؤه على ذلك أن قفى أعضاؤه من باريس ولكن برين عاد فوجد أنه لا غنى له عن البرلمان فيما ينوى إصداره من القوانين الأخرى فاستعاد الأعضاء من جديد وعرض عليهم مشروع قانون ينحول للحكومة جباية ضريبة جديدة فرأى أعضاء البرلمان أن يكتسبوا عطف الأمة باحالة الأمر عليها والاشارة بوجوب استفتائها في تقرير هذه الضريبة واقترحوا بناء على ذلك دعوة "الجمعية العمومية" وهي هيئة نيابية تتألف من نواب الطوائف الثلاث : الأشراف ، والأكليروس ، والعامة ، ولكنها لم تكن دعيت للاجتماع منذ سنة ١٦١٤ وكانت فكرة برلمان باريس التي يرمى اليها من هذا الاقتراح هي كما أسلفنا الاحتماء في الرأي العام . واحراج موقف الحكومة . ولكن ما كان ليبتئس لويس ولديه (سريير العدل) الذي ابتدع لمثل هذا

الموقف ففاجأهم (بسرير) فوافقوا بعده على القانون ثم انتقم لنفسه من زعماء المعارضة بنفيهم فتعالت أصوات الاحتجاج وازداد عطف الأمة على البرلمان وأخيرا فكر برين التعس في أن يقتبس عن موبو خطته الاستبدادية العتيقة ويلغى عمل البرلمان ولكن عاصفة السخط والاستنكار التي هبت في وجهه عقب ذلك أرغمته على العدول عن رأيه والعودة الى العمل بمعاونة الهيئات الرسمية التي تعرفها البلاد . فعقد مجلسا من رجال الدين أملا منه في الحصول على شيء من مال الكنيسة ولكن المجلس بدأ قراراته بطلب استدعاء الجمعية العمومية فلم يبق أمام الحكومة بد من الرجوع الى هذه الجمعية فصدر مرسوم الملك بإجراء الانتخابات بحيث تنعقد الجمعية في مايو سنة ١٧٨٩م واستقال بعد ذلك برين واضطر الملك لاستدعاء نكر من جديد .

الفصل الثاني

الجمعية العمومية

لعلك لم تنس بعد أن الحكومة في فرنسا كانت حكومة استبدادية وأن سلطة الملك فيها كانت سلطة مطلقة بمعنى أنه يستطيع أن يعفى المدين من ديونه فلا يبقى لدائنه حق في مطالبته بتلك الديون وأنه يستطيع أن يأمر بالقاء أى انسان فى السجن لغير سبب شرعى ومن غير أية محاكمة قانونية فيلقى فيه الى أن يشاء الله وأنه يستطيع كذلك أن يعترض تنفيذ أى قانون فيبقى معطلا كأن ليس له فى الدولة وجود . وصور لنفسك بعد ذلك ما شئت من التصرفات التحكيمية ثم انسبها الى سلطة ملك فرنسا فى ذلك العهد تكن غير متجاوز فى قولك حدود تلك السلطة .

ولكن الملك كان يرجع الى بعض الهيئات الاستشارية من حين الى حين للاستئناس برأيا فيما يريد أن يقدم عليه من الأمور دون أن يتقيد برأى تلك الهيئات ودون أن يكون لها عليه أى سلطان . وكان من بين تلك الهيئات هيئة عامة تمثل طوائف الأمة الثلاث : الأشراف . ورجال الدين . والشعب . وكانت هذه الهيئة النيابية

العامة تسمى "الجمعية العمومية" وكان نواب كل طائفة من طوائفها يجلسون مفصلين في مداولاتهم وقراراتهم . لكل جماعة منهم قاعة خاصة بهم لا يجالسهم فيها نواب الطائفتين الآخرين . ووجرت العادة أن تعطى كل جماعة من هذه الجماعات صوتها فيما استشيرت فيه . فكان رأى الراجح هو الذى يجتمع عليه صوت مجلسين من المجالس الثلاثة وكانت الأعلىية بذلك دائما فى جانب الأشراف ورجال الدين نظرا لاتفاق صوالحهم فى وجهة نظرهم الى الأمور واختلافهم فى ذلك عن الطائفة الثالثة . وهى طائفة الشعب . ولقد انعقدت هذه الجمعية العمومية للمرة الأخيرة سنة ١٦١٤ م ثم لم تدع للانعقاد بعد ذلك حتى وقعت الأزمة المالية التى نحن بصددتها فى عهد لويس السادس عشر وكان ما كان من اصرار الهيئات الأخرى جميعها على وجوب استفتاء الأمة ممثلة فى هذه الجمعية فصدر قرار الملك فى ٨ أغسطس سنة ١٧٨٨ م بإجراء الانتخابات العامة وتحديد يوم ٥ مايو سنة ١٧٨٩ لانعقاد الجمعية فى قصرها بفرساي .

وهنا ملاحظة جديرة بالاعتبار وهى أن الشعب الفرنسى كان قد تطور تطورا جسيما منذ سنة ١٦١٤ م بحكم ما مر عليه من الحوادث الجسام فى عهد لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر وبحكم ما سبق لنا بيانه من العوامل عند البحث فى أسباب الثورة

فكان من غير الميسور أن تخرج فرنسا سنة ١٧٨٩م هيئة نيابية تشبه في خضوعها واستسلامها تلك الهيئات التي كانت تخرجها قبل سنة ١٦١٤ ولكن الملك ورجال البلاط نسوا هذا الاعتبار وأغفلوه أو قل أنهم تناسوه عامدين وتغافلوا عنه قاصدين . فأنهم حينما قرأهم على عقد هذه الجمعية ظلوا يرجون أنها تلتقى كما كانت تفعل في العصور الخالية ثم تنظر فيما يعرض عليها لتبدي رأيها فيه ثم تنقص عقب فراغها من الأدلاء بهذا الرأي .

أما الشعب فإنه كان يتشوق الى ذلك العصر الذي يستطيع فيه أن يحرق نفسه من قيود الماضي فيطلق صوته ليملأ به الأسماع ويطلق يديه ليملأ بها ميادين الأعمال . فما هو إلا أن دعا الملك الى هذه الانتخابات العامة حتى رأى الشعب أن الفرصة التي يترصدها قد حانت فشمروا وتأهب حتى لا تفتر منه وليأخذ بناصيتها وهي مقبلة . وأصر من البداية على أن يكون نوابه قدر نواب الأشراف ورجال الدين مجتمعين حتى لا يضيع صوته بجانب صوتيهما . وكثرت في هذا البحث كتابات المفكرين والعلماء وانضم نكرالى رأى الشعب ونصح بقبول مطلبه فتقرر أن يكون عدد نواب الشعب مساويا لمجموع نواب الأشراف ورجال الدين . وكانت هذه أول حلقة في سلسلة الانتصارات الطويلة التي أحرزها الشعب في نزاعه مع الحكومة .

. ثم بدأت عملية الانتخاب في أنحاء فرنسا . وكان الناخبون في كل دائرة يجتمعون ويعلمون عن رغباتهم ومطالبهم قبل أن ينتخبوا نوابهم . ويدونون هذه المطالب في محاضر لتكون بمثابة عهد على نوابهم في الجمعية . وبذلك توفرت لفرنسا مجموعة كاملة وافية من تلك المطالب التي اعتبرت فيما بعد برنامجا عاما تولى رجال الثورة تحقيق ما جاء فيه رويدا رويدا . وإليك أهم ما دون من تلك المطالب :

(١) أن لا تقتر الجمعية العمومية ضريبة ما إلا بعد أن يحقق دين الحكومة وتضمن حرية الأفراد .

(٢) أن تعهد الجمعية العمومية بوضع دستور للبلاد .

(٣) أن يتقرر في هذا الدستور :

(أ) مبدأ مسئولية الوزارة .

(ب) مبدأ سيادة الأمة .

(ج) مبدأ المساواة أمام القانون والمساواة في الضرائب والوظائف .

(د) وأن يكون الانتخاب أساس كل سلطة .

(٤) أن تجتمع الجمعية العمومية في مواعيد محدودة دورية .

(٥) أن يلغى نظام (الخطابات المختومة) .

ما الحفلات الانتخابية فكانت الحماسة فيها بالغة أقصى حدودها ولم تكن تسمع من منابرها إلا أشد الحملات على النظم العتيقة . ووجوب التخلص من الماضي ودفنه وابتداء حياة جديدة يكون عمادها صوت الشعب ويكون شعارها إرادته .

وهكذا كان الملك وحاشيته وأشرافه في واد بالنسبة لهذه الجمعية العمومية والشعب في جهة مقابلة يسير في واد آخر .

وأخيرا حل يوم ٥ مايو سنة ١٧٨٩ م وملا الناس طرقات باريس المؤدية الى فرساي وأحتشدوا فيها مبكرين ليشهدوا ذهاب الأعضاء الى دار النيابة فكانوا كلما مر بهم نائب من نواب الشعب صاحوا بأسمه وهتفوا بحياته وزودوه بعبارات التحية والتشجيع فاذا مر بهم نائب من نواب الأشراف أو رجال الدين أمسكوا ووجموا . وقالوه بالصمت الرهيب .

وأخيرا أيضا تكامل الجمع داخل القاعة واتخذ رجال الدين مقاعدهم على اليمين وجلس الأشراف على الشمال وكانت مقاعد نواب الشعب تجاه العرش في مؤخر القاعة . ولما دخل نكروبول بالحماسة الشديدة . ولا غرو فانه كان رجل الساعة الذي نتجه اليه أنظار العامة وينعقد حوله رجاءهم . ثم أقبل بقية الوزراء وجلس كل واحد منهم في مكانه الذي أعد له . وعند ذلك ظهر الملك

وتبعته الملكة والأمراء ومن ورائهم حاشية فاخرة ساطعة لامعة .
 فدوت القاعة بالتصفيق والهتاف عند دخول الملك وبعد أن
 استوى على عرشه ووضع قبعته على رأسه لبس التّواب جميعا
 قبعاتهم على خلاف ما جرى به العرف من بقاء الطبقة الثالثة عارية
 الرأس أثناء الانعقاد . وهى ظاهرة تافهة ما كنا لنروها فى هذا
 الموجز لولا ما توسمنا فيها من المغزى العميق الذى نتجلى فيه روح
 الشعب وعزمه على محو الفوارق والوقوف فى صف واحد مع بقية
 الطبقات .

واشرأبت الأعناق لاستماع خطاب العرش . فوقف الملك .
 وتلا الخطاب الآتى بصوت تملأه العاطفة والانفعال :

”أيها السادة :

ها قد حل ذلك اليوم الذى طال شوق لحلوله وهاءنا أرى .
 حولى تواب تلك الأمة التى أرى من مجدى أن أكون عليها حاكما .
 ولقد طال المدى على آخر مرة انعقدت فيها هذه الجمعية حتى لقد
 وقع فى الحساب أنها لن تلتقى بعد ولكنى لم أتردد لحظة واحدة .
 فى العودة الى عرف قد تستمد الدولة منه قوة جديدة ويتحقق به
 للشعب عنصر جديد من عناصر السعادة .

وأنه ما من مقصد نبيل يرجى منه الخير للصلحة العامة وما من واجب يقع على عاتق ملك بوصف كونه الصديق الأول لشعبه إلا ولكم أن تطمعوا فيه عندى وأن الأمل الذى يملأ قلبي والأمنية الحارة التى تملك على نفسى هى أن أرى هذا المجلس وقد ساد فيه التفاهم والوفاق وأن أرى أن هذا الاجتماع يكون فاتحة عصر رخاء وسعادة لهذه البلاد . إن هذا يكون لى من الله خير جزاء على كرم مقاصدى وصدق محبتي لشعبي " ١٥ .

فقابل الثواب هذه الأمانى الطيبة والوعود الحسنة بالتقدير العميق والتصفيق الشديد . ثم قام وزير الحقانية وكان خطابه بمثابة استعراض لأفضال الملك وأنه لم يتردد فى إجابة مطالب الشعب العادلة فبقى على الشعب واجب الحذر من الاستماع للمتهوسين أصحاب البدع وأنصار التجديد ! والابتعاد عن كل ما من شأنه أن يحدث انقلابا خطيرا فى نظم البلاد .

وخطب بعده نكر وكان الشعب يرتقب دوره بفارغ الصبر لعلو مكانته فى النفوس ولحسن بلائه فى المطالبة بتسوية ثواب الشعب بثواب الطائفتين الأخرين ولكن نكر ظل يتكلم بالأرقام ويستعرض من حسابات الدولة ما أثقل به رأس الجميع وبعد أن استغرق حديثه فى هذه الشئون نحو ثلاث ساعات أجهد فيها أذهان

سامعيه وأكدها ختم خطابه بكلام فاتر كان يراعى فيه أن لا يخرج
مركز الحكومة وأن لا يتورط مع الشعب .

على أن المشكلة التي كان ينبغي أن يعالجها خطاب العرش
وأن يناقشها الوزراء في خطبهم التالية بقيت لم تمس . وكانت
أول ما شغل المجلس بعد فراغه من الاستماع لتلك البيانات المطولة
التي لم تصرف ذهنه عن الاشتغال بها . وذلك أن الشعب إنما
قصده إلى الاشتراك مع نواب الأشراف ورجال الدين في المداورات
والتصويت حينما مهد لذلك بمطالبة الملك بأن يصدر ذلك القرار
القاضي بأن يكون عدد نوابه مساويا لنواب الطائفتين الأخرين .

ولكن الأشراف ورجال الدين أصرروا على أن ينفرد كل مجلس
بنفسه وأن تصدر الأصوات بالمجالس لا بالراءوس ليفسدوا بهذه
الطريقة على نواب الشعب ما كسبوه بكثرة عددهم فبذل نواب
الشعب ما استطاعوا من الجهود للتوفيق وتوحيد الكلمة ومحو
الفوارق بين الطوائف في الجمعية ولكن حبط سعيهم أمام عناد
الأشراف وهكذا نشأت جرثومة ذلك النزاع السياسي الهائل الذي
انتهى بقلب نظام الحكم في فرنسا .

الفصل الثالث

الجمعية الوطنية

الثورة تبدأ يوم ١٧ يونيه سنة ١٧٨٩ :

ظل نواب الطبقات الثلاثة في أخذ ورد نحو خمسة أسابيع خرجوا منها كما دخلوا فيها متنازعين غير متفقين . فعول نواب الشعب أخيرا على العمل بمفردهم وقرروا دعوة نواب الأشراف ورجال الدين الى الحضور بقاعة الشعب للقيام بالواجبات التي انعقدت الجمعية العمومية من أجلها وقرروا كذلك أنهم يمثلون نحو ٩٦ ٪ من مجموع الأمة فهم لذلك أصحاب السلطة الشرعية فيها . واجتمعوا فعلا في اليوم السابع عشر من شهر يونيه (١٧ يونيه سنة ١٧٨٩) وأطلقوا على أنفسهم اسم الجمعية الوطنية منكرين بذلك وجود الطوائف الأخرى .

وهنا لا ينبغي أن تفوتك أهمية هذا القرار فلقد كان الملك وحزبه يستندون الى أساس قانوني حين كانوا يقولون إنهم هم أصحاب السلطة بحكم التقاليد وبحكم الواقع . أما الشعب فلم يكن

يستند إلا الى النظرية الحديثة . نظرية سيادة الأمة التي تلقاها عن روسو وغيره من الكتاب . فترى من ذلك أن الصراع في الحقيقة كان قائما بين القانون القديم الذي جرى العمل به ونظرية سياسية حديثة يريد الشعب أن يتمسك بها ويحلها محل ذلك القانون القديم .

قرارات ١٧ يونيه سنة ١٧٨٩ :

ولقد أعلن نواب الشعب في يوم ١٧ يونيه أنهم هم " الجمعية الوطنية " . وقرروا بعد ذلك في نفس الجلسة عدم شرعية الضرائب الحالية ولكنهم مع ذلك قرروا الاستمرار في جبايتها مادامت الجمعية منعقدة وضمنوا بهذا القرار الحكيم أن لا يفاجأوا بمرسوم يحل مجلسهم ويكون سببا في إيقاف دفع الضرائب . وقرروا كذلك انشاء لجنة للتموين كي تنظر في مشكلة الغذاء وقلته وما يتهدد البلاد من المجاعات وكانت هذه القرارات أول صوت رفعه الشعب في وجه السلطة القديمة . فاذا أردت أن تتحدد بدء الثورة تحديدا علميا دقيقا فانقش في لوحك هذا التاريخ — ١٧ يونيه سنة ١٧٨٩

الفصل الرابع

اليمين التاريخية

كان يوم ١٧ يونيه سنة ١٧٨٩ في تاريخ فرنسا يوما مشهودا له ما بعده . ولقد صعد الأشراف ورجال البلاط لوقع قرارات الجمعية الوطنية فيه فأجمعوا رأيهم على وجوب ذهاب الملك الى دار الجمعية في موكب رسمي ليعلن أن قراراتها التي صدرت في ذلك اليوم لاغية وليأمر بوجوب انفصال ثواب الطبقات الثلاث ولبضع بنفسه برنامج الأعمال التي يتناقش فيها المجلس ولو أنهم أظفحوا في مفاجأة الجمعية بهذه المناورة الملكية لأمكن احتمال نجاحها ولكنهم آتسوا من بعض رجال الدين ميلا الى الانضمام للجمعية العمومية فأشفقوا من ذلك وخشوا أنه اذا تم كان تعزيزا لمركز الجمعية فأروا أن يحاولوا دون انعقادها حتى يحل موعد تلك الزيارة الملكية التي أعلنوا أنها ستكون في ٢٣ يونيه . وأغلقت قاعة الاجتماع في ٢٠ يونيه بحجة أن العمال سيتولون طلاعها واعدادها لدخول الملك . فلما التقى الثواب على بابها المغلق في صبيحة ذلك اليوم وأعرضتهم قوة كانت مرابطة هناك لمنع اجتماعهم أخرجت صدورهم وأنفخ بعضهم



القسم التاريخي

يقترح أن يتوجه الأعضاء الى قصر الملك نفسه ويعقدوا اجتماعهم تحت نوافذه ولكنهم أخيرا انصرفوا الى مكان فسيح مجاور كان يتخذ (ملعبا للتنس) وهناك تباحثوا في الأمر فقرروا القرار الآتي :

« انه لما كانت مهمة الجمعية الوطنية هي وضع دستور للبلاد وتنظيم القواعد الأساسية للقانون العام وتأييد المبادئ الحقيقية للملكة فلا يحول أى مانع دون اجتماعها وهوالالة أبحاثها ومداولاتها في أى مكان تتعقد فيه وحيثما يجتمع أعضاؤها فالجمعية الوطنية تعتبر منعقدة بصفة رسمية . وعلى ذلك تقرّر الجمعية أن يقسم أعضاؤها اليمن على ألا يتفرقوا ولا ينفرط عقدهم وأن يجتمعوا في اى مكان تدعو اليه الظروف الى أن تتم وضع دستور للملكة وتقييمه على دعائم ثابتة » .

وقد كان الأعضاء يقسمون هذا القسم التاريخي العظيم بحماسة شديدة والشعب محيط بهم في صمت يتجلى فيه عطفه عليهم وتأييده لهم . وقد رسم المصوّر الشهير (دائيد) صورة رائعة لهذا الاجتماع ترى اليوم في متحف اللوفر ويتوسم فيها الناظر كل ما كان يحف بهذا المشهد العظيم من الروعة والجلال^(١) .

(١) "الجمعيات الوطنية" تأليف الأستاذ عبد الرحمن الرافعي .

الفصل الخامس

وقفه ميرابو الشهيرة

عاد النواب في اليوم التالي الى ملعب التنس فوجدوا أن بعض الأمراء قد أعدّه للعب فتوجهوا الى كنيسة "سان لوى" حيث انعقدوا برا بقسم الأمس وهنا انضم اليهم كثير من رجال الدين. وأستقبلهم نواب الشعب في صفوفهم بالترحيب .

ودخل الملك القاعة في ٢٣ مايو وعليه كل مظاهر الأبهة ومخيلة العهد القديم وخطب فيمن بها قائلا أن مندوبى الأمة لا بد أن يكونوا طبقات ثلاثا كل يعمل على حدته . وأنه ينبغي على الجمعية أن تكف عن الخوض في الموضوعات المشيرة للنفوس كموضوع الامتيازات وغيره . وأعان عدم شرعية (قرارات ١٧ يونيه) وبني على ذلك أنها تعتبر لاغية وأمر بحل المجلس على أن تجتمع كل طائفة من طوائفه ابتداء من الغد في مكانها الخاص . ثم ختم حديثه بقوله : « وان لأقول لكم بحق أنه ما من ملك كان لشعبه مثل ما أنا لكم . فكونوا معي أكن معكم وإلا قت وحدى بالعمل لتحقيق مصالح الأمة واعتبرت نفسى مندوبها الفرد ! » .

وأنصرف ومن خلفه ذنب طويل من الأشراف ورجال الدين — أما نواب الأمة فظلوا في أما كنهم ساكتين مطرقين الى أن قام مرابو فيهم خطيبا وشق هذا الصمت المخيم عليهم بقوله :

”أيها السادة :

أنى أعترف لكم بأن الذى سمعتم الآن ربما كان فى صالح الأمة ولكنى أشك دائما فى كل ما تهديه اليها يد الاستبداد وأوجس منه خيفة . فما هذه الدكاتورية الشائنة . انهم يريدون أن يكرهونا بقوة السلاح على أن نسلك سبيل السعادة التى يرسمونها لنا . فمن هذا الذى يصدر هذا الأمر ؟ انه ويحكم ! من هذا الذى يضع هذه القوانين ؟ انه ويحكم أيضا ! انه هو عين الشخص الذى كان يذبح عليه أن يتلقى هذه الأوامر عنكم . نعم أيها السادة عنا نحن الذين نمثل ٢٥ مليوناً كلهم ينظرون إلينا ويتطلعون الى ما سنحمل اليهم من السعادة ولكن ها أتم تجتمعون وناقشون تحت قوة السلاح . فم يخشون علينا ؟ أين هم أعداء الشعب الذين يريدون حمايتنا من أيديهم ؟ اننى أطلب اليكم أن تكونوا عند حد القسم الذى أقسمتموه . إن هذا القسم يمنعكم أن تنفضوا حتى تضعوا لهذه الأمة دستورا ! “ .

ورأى كبير الأمناء أن التواب لم ينفضوا فعاد اليهم وذكركم
بأمر الملك فأنبرى له ميرابو وصاح في وجهه قائلاً :

” اذهب الى سيدك وأبلغه انا نحن هنا بأمر الشعب ولن نبرح
مكاننا هذا إلا مسوقين بأسنة الحراب ! “ — وما كاد ميرابو يتم
كلمته هذه حتى صاح التواب بصوت واحد ” نعم هذه هي إرادة
الجمعية “ . فانسحب كبير الأمناء . وقام الأب سيس أحد أعلام
الجمعية والمحرم لصيغة اليمين التاريخية التي أقسمها التواب في ملعب
التنس فخاطب زملاءه الأعضاء قائلاً :

” أيها السادة ! إنكم الآن كما كنتم بالأمس ! هلموا لتداولي
فيا لدينا من الأعمال “ .

فأخذت الجمعية في أعمالها فعلاً وقررت التمسك بقرارات
١٧ يونيو وأعلنت حق الحصانة النيابية بالنسبة لأشخاص التواب
واعتبار كل من يعتدى عليهم مرتكباً لأعظم الجرائم . ولما وصل
الى الملك تفصيل ما جرى رأى من الحكمة ألا يلجأ الى القوة وقال
كلمته الماثورة :

” اذا كانوا لا يريدون مغادرة المكان فدعوهم وشأنهم ! “ .



مبراو : أبلغ سيديك أنا هنا بإرادة الشعب ولن نبيع المكان إلا على أسس الحراب !

وفي اليوم التالي انعقدت الجمعية وعادت الى صفوفها اغلبية رجال الدين واشترك معهم في ذلك ٤٣ شريفا كان من بينهم دوق أورليان ابن عم الملك فأرسل الملك في ٢٧ يونيه الى بقية الأشراف ورجال الدين يوعز اليهم بالانضمام الى الجمعية فساروا اليها كارهين متناقلين .

ولقد أراد دوق لكسمبرج زعيم الأشراف أن يعترض الملك في أمره هذا فقال له : ” إن هذا الأمر يا مولاي يعتبر بمشابة إعلان من جلالتم بأن سلطة الجمعية الوطنية أصبحت فوق كل سلطة . والأشراف مستعدون لأن يقدوا جلالتم بأرواحهم “ .
فما كان من الملك الطيب القلب إلا أن أجابه بكلمته المشهورة :
الأخرى :

” انى لا أريد أن يموت أحد من أجلى ! “ .

الفصل السادس

مقاومة البلاط

وكأنما أخذت رجال البلاط نوبة إزاء هذا الاندحار الذى أصاب نفوذهم على يد الشعب . فتأمروا على الانتقام لأنفسهم وبدأوا باقصاء نكر عن الملك حتى لا يبقى تحت تأثيره هو ومن على شاكلته من المصاحين ووكلا بالملك زوجته مارى انتوانت وأخاه (الكونت أرتوا) ليتوليا إقناعه بوجوب العدول عن خطة المسالمة وضرورة الالتجاء الى القوة فى استعادة ما خسره الملكية من النفوذ فى الأيام الأخيرة . فما كان أسرع الملك الى الاقتناع بصدق نظرهم والنزول على إرادتهم . ولم يمض غير قليل حتى أحاطت باريس قوة عظيمة لا تقل عن ٤٠,٠٠٠ جندى فلم تطمئن الجمعية الى حشد هذه القوة حول باريس فى تلك الظروف . ووافقت على اقتراح ميرابو الذى يقضى بإرسال وفد الى الملك يلتمس منه سحب هؤلاء الجنود . فلما ذهب الوفد أجابه الملك بأنه هو صاحب السلطة المطلقة فى تحريك جنوده حيث يشاء وان هذه القوة لم يقصد بها مع ذلك إلا المحافظة على النظام . وأنه ينصح أعضاء الجمعية

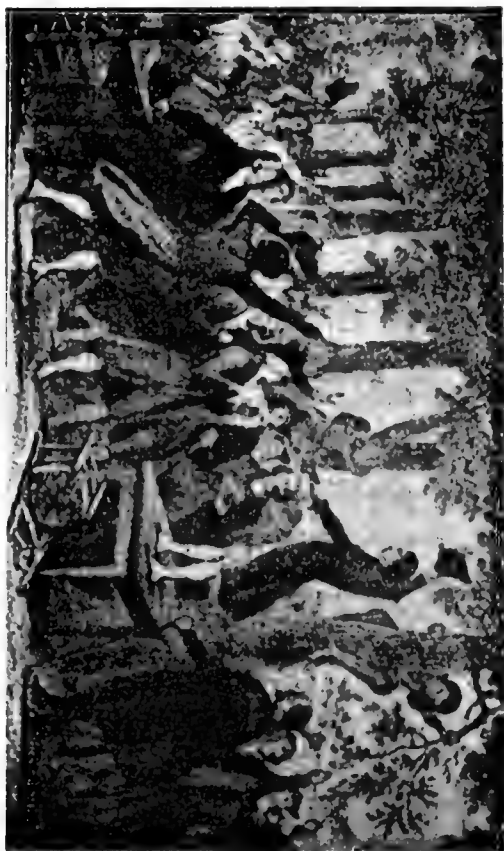
بالانسحاب الى ما وراء باريس إن كانوا يخشون من هذه الجنود بأسا .

فأثار هذا الرد جميع الخواطر وجاء محققا لكل ما ساور الأذهان من المخاوف والأوهام واضطربت له المدينة اضطرابا عنيفا وبافت الصحف في تصوير الحالة وتنافس الخطباء في الهاب الجماهير واذكاء حماسهم فكنت لا ترى حيث تسير إلا خطيبا يعد للناس ما يتهددهم من الأخطار ويناتدهم القيام في وجه الظلم والظالمين وإلا جماعة أحاطت به فوقفت تستمع له بأفواه متقلصة الشفاه ووجوه ممتعة اللون وعيون تنبعث منها نوايا الشر ولم يبق لانفجار هذا الرجل الفوار إلا حماقة من حماقات البلاط التي سارت به نحو الهاوية هذا الشوط البعيد وكان جديرا به أن يتوفاها ويتجنبها في هذه الأوقات العصيبة ما أستطاع . غير أنه ما لبث ان جاد بتلك الحماسة وأوقد الفتنة التي كان عليه أن يحول دون اشتعالها .

ففي اليوم الحادى عشر من شهر يولييه بينما كان نكر وزير الشعب على مائدة غذائه جاءه من الملك رسول برسالة يبلغه فيها أنه حكم عليه بالنفى وأنه يجب عليه مغادرة البلاد في الحال . ففرغ الرجل من طعامه . ولم يفض الى أحد ممن كانوا معه بفحوى الرسالة . واصطحب مدام نكر معه في عربته . وسار بها الى حدود فرنسا .

غير أن ما وقع لنكر في داره في ذلك اليوم لم يلبث أن تجاوزت به إنحاء باريس بعد ظهر اليوم التالي . وسرعان ما خرج الناس من ديارهم ألوفا واكتظت بهم الطرقات . وساروا الى حدائق (الباليه رويال) حيث كان يتبارى الخطباء في تهيج عواطف الناس . كل واحد فوق مائدة من موائد الحديقة يحيط به شيعته ومريده . وكان من بين هؤلاء الخطباء في ذلك اليوم (كامي ديمولان) وهو خطيب شاب ميز نفسه في الأيام السالفة بحماسة الفياض وبيان الخلاب . فاحتاط الناس بمائدته ووقف هو بينهم أحمر العينين وفي يده مسدس مشهور ثم قال : ” ايها المواطنون ! ليس لدينا وقت نضيعه . لم يكن خلع نكر إلا نذيرا بمذبحة هائلة كمذبحة سنت برثلميويكون ضحاياها من الوطنيين المخلصين . في هذه الليلة ستقوم الفرق السويسرية والألمانية من ثكاثهم ليدبحونا جميعا . لم يبق أمامنا إلا طريق واحد . ذلك أن نحمل السلاح ! “ . فقبولت كلماته هذه بصيحات الاستحسان العنيفة . فعاد واقترح عليهم أن يعملوا على تمييز أنفسهم بوضع شارات تجعلهم في وسط المعمعة يتعارفون ويتكاتفون . ثم قال :

” فهل تختارون اللون الأخضر — لون الأمل — أم الأحمر — لون الحرية ؟ “ فصاحوا به جميعا ” الأخضر ! الأخضر ! “ فوثب



كأس ديولات في المدينة يخطب إليها

ديمولان عن ظهر (منبره) وأخذ بغصن فقطع طرفه ثم وضعه في جانب قبعته فحذا حذوه سامعوه حتى لم يعد يبقى في الحديقة غصن أخضر^(١) !

وانطلقت هذه الجموع كلها في صورة مظاهرة هائلة كان يترايد عددها كلما جازت شارعا جديدا . وكان في مقدمتها جماعة يحملون تمائيل نصفية للوزير نكر ولدوق أورليان أيضا لأنهم سمعوا أنه ستصدر الأوامر بنفيه كذلك كما نفى نكر . فلما بلغوا (ميدان فندوم) لقيتهم شرذمة من الجنود الألمانية فتصدت لهم وأرادت تفريقهم فأمطرها المتظاهرون وابلا من الحصى والحجارة فولت أمامهم الأدبار . وساروا حتى بلغوا (ميدان لويس الخامس عشر) وهناك قابلتهم قوة أخرى وأطلقت عليهم النار فقتل بعض المتظاهرين وتفرق الباقون . وتعقبهم قائد القوة هو وفرسانه شاهري السيوف فوقعت طعناتهم على بعض النظارة ممن لم يشتركوا قط في المظاهرة . فبلغ الاستياء منتهاه . وعم التذمر . واندشرت الدعوة "إلى السلاح" في كل مكان !

الفصل السابع

يوم ١٤ يولييه في باريس

سقوط الباستيل

عرفت أنه في يوم السبت ١١ يولييه تقي نكر . وفي يوم الأحد ١٢ يولييه قامت تلك المظاهرات التي أفسدها البوليس وأسأل فيها الدماء وتسبب بذلك في انتشار الناس في طلب السلاح . ولقد أدركت الجمعية الوطنية سوء عاقبة هذه الحركة اذا هي تركتها تجري في مجراها ولم تعمل على تلافيها . فبادرت بإرسال وفد الى الملك ليطلعه على حقيقة الخطر الذي بات يتهدد البلاد ويلتمس منه سحب الجنود الأجانب من باريس وتسليم المدينة الى حرس من الوطنيين . ولكن الملك رفض هذه المطالب فعاد الوفد يحرق أذيال الخيبة . غير أن هذا لم يفت في عضد الجمعية . بل هيا لها فرصة أخرى لتظهر فيها أنها كانت جديرة بذلك الاحترام الذي سطره لها التاريخ على صفحاته فانها اجتمعت لساعتها وقررت القاء مسئولية الموقف على الوزراء الحاليين الذين خلفوا نكر وزملاءه كما قررت . التمسك بوجوب استبعاد الجنود الأجانب وانشاء حرس وطني .

وأخيرا قررت أنه خوفا من احتلال الحكومة لقاعة المجلس أثناء الليل ومصادرة الاجتماع يجب أنه لا تنفض الجمعية بل تداوم اجتماعها ليل نهار ويتناوب الأعضاء في ذلك فيجلس بعضهم طول الليل على أن يحل محلهم غيرهم في الصباح . وعين لا فابيت ويكلا للجمعية إشفاقا على الرئيس (بايى) من كثرة العمل ووفرة المجهود . هذا ما كان من أمر الجمعية واحتياطاتها . أما الشعب فان هياجه كان يتزايد كل ساعة وفي صبيحة الاثنين ١٣ يوليه اكتظت الميادين بالناس وتآلفت فرق وطنية من الأحياء المختلفة فكنت تسمع أن هذه فرقة متطوعى (الباليه رويال) وتلك فرقة متطوعى (التويلرى) وهكذا . وسرعان ما تم تنظيم هذه الفرق . وجعل على كل واحدة منها ضابط وتولى قيادة الجميع قائد عام . ثم أُلغيت الشارة الخضراء وجعل مكانها اللونان الأحمر والأزرق وهما لونا مدينة باريس وبدأت دوريات المتطوعين تطوف شوارع المدينة فعلا . ولم يكن ينقصها غير السلاح .

وفي يوم ١٤ يوليه عاد الناس يلتمسون السلاح في كل مكان وقد ضاقوا ذرعا بتلك الوعود التى كانت بلدية باريس تعلمهم بها كلما طلبوا إليها أن تمدّهم بالسلاح فحملوا على (الأوتيل ديزا نفاليد) وقد بلغهم أن بها كمية هائلة من الأسلحة واقتحموها رغم حاميتها

واستولوا منها على ٢٨ ألف بندقية وأخذوا كل ما كان فيها من سيوف وخناجر وأسلحة متنوعة .

وكانت قد راجت إشاعة منذ الصباح بأن الحكومة صوّبت مدافعها من سجن الباستيل على شارع سانت انتواز استعدادا لمقاومة الجماهير وتشتيتهم والباستيل إذ ذاك عنوان الاستبداد وركن من أركان الاستبداد . كان حصنا عتيقا ذا بحور معتمة بها سلاسل وأغلال أعتها الملوك لأعدائهم الذين يحقدون عليهم لأمر ما عظم أم تفه . فكانوا يلقونهم فيه من غير تحقيق ولا محاكمة حتى إذا مات أحدهم في ظلمته الموحشة أخرجوه ودفنوه سرا باسم مستعار ليظل أمره مكتوما إلى الأبد .

وقد أبدع الكاتب الانجليزي تشارلس دكتر في تصوير هذا السجن وبيان أثره في نفوس ضحاياه حين كتب روايته المشهورة (قصة المدينيتين) فانه جعل مدار قصته نزلا من نزلاء ذلك السجن كان في شبابه طيبيا معروفا في باريس . ووقع له يوما وهو في نزهة على ضفاف السين أن اعترضته عربية بها اثنان من الأشراف حملاه على أن يذهب معهما إلى قصرهما وهناك عرضا عليه فتاة أخذتها نوبة من الجنون وقتي جريحا في صدره يكاد يكون في المالكين . فلما وقف الطبيب بالفتى عرف منه أنه شقيق تلك الفتاة وأن

أخته تزوجت منذ زمان من شاب كانت تحبه ويحبها ثم رآها أحد النبيلين صاحبي القصر فحدثه نفسه باغتصابها فعرض على زوجها أن يحملها على ما أراد فأبى كل الأباء فسامه سوء العذاب وجرعه البلاء ألوانا حتى قضى نحبه . فمد يده إلى زوجته وسبأها فما بلغ الخبر أبأها حتى مات غما . واقتفى الغلام أثر أخته إلى هذا القصر فكان جزاؤه ذلك الجرح المميت . وقد قام الطبيب على علاج الفتاة بعد موت أخيها هذا أسبوعا كاملا ولكنها لحقت بأفراد أسرتها جميعا إلى الآخرة . وقد رأى الطبيب أن يشكو أمر هذين الشريفين إلى الحكومة فقرر ما وقع له في رسالة ثم رفعها إلى الوزير ولكنه لم يلبث أن أخذ من داره عنوة وألقى في سجن الباستيل بعد أن قابله الاخوات في الطريق وأظهرها له رسالته التي بعث بها إلى الوزير ومزقاها على مرأى منه أما هو فلبث في السجن ثمانية عشر عاما خرج بعدها كما تخرج الموتى من القبور يوم النشور لا تقوى عيناه على مواجهة الضوء ولا تعى ذاكرته صورة أقرب الناس إليه .

وانما أوردت لك هذه الصورة لتعرف منها نوع الجنايات التي كان يليق مقترفوها في هذا السجن من أجلها ولتعرف بأى عين كان ينظر الناس إلى هذا السجن ولتقف على ما كانت له من رهبة في نفوسهم .

فلما سمعوا بأن الحكومة قد صوّتت مدافعها عليهم من فوقه سار إلى رئيس حاميته وقد منهم يطالبه بسحب المدافع وكانت الجموع قد بدأت تتدفق أفواجاها من أنحاء باريس منذ الساعة التاسعة صباحا وهي تهتف وتصيح "إلى الباستيل ! إلى الباستيل !" وظلت كذلك إلى الثانية بعد الظهر . فاجتمع في الساحة التي أمام السجن خلق كثير وهم يحملون الحراب والسيوف والبنادق ووقف حراس السجن في أماكنهم على أتم أهبة ورفعت الجسور المتحركة عن الخندق الذي يحيط بالسجن استعدادا للترال وامتنع قائد الحامية عن سحب مدافعه .

وكان الشعب المتحمس مازال واقفا يصيح "الباستيل ! لأبد لنا من الباستيل !" وكانت تربط تلك الجسور المعلقة سلاسل مثبتة في الأرض . فهجم عليها أخيرا رجالان وأعمالا فيها ضربا بالفؤوس . وانضم إليهم غيرهم . فلم يلبث الجسر الأول أن هوى إلى الأرض وعبر الناس عليه الخندق . واتجه غيرهم إلى جسر آخر ليكسروه . ولكن الحامية أطلقت عليهم النار وقتلت منهم كثيرا فزادهم منظر القتلى حماسة وأكسبتهم رؤية الدم المراق وحشية وظلوا في مصارعة الأبواب والأقفال والنار من فوقهم تحصدهم حصدا نحو أربع ساعات وأخيرا أقبلت فرقة الحرس الوطني بمدافعها فتغير

الموقف وطلبت الحامية التسليم . أما (ديلونى) رئيسها فقد ذهب إلى مستودع البارود الذى بالسجن وفى يده ثقاب موقد يريد أن ينسف به الحصن ومن فيه ولكن رجاله أوقفوه ورفعوا علما أبيض وأداروا فوهات المدافع إلى داخل القلعة رغبة منهم فى التفاهم مع الشعب وتسليم الحامية على شرط أن يسمح لها بالانسحاب آمنة على أرواحها غير أن المهاجمين أصرروا على المطالبة بإزالة الجسور أولا وفتح الأبواب وصاح رجل ممن كانوا فى الطليعة "أنزلوا الجسور! لن نمسك بأذى!" ففتحت الأبواب وتدفقت الجماهير إلى السجن . وكانت أول صيحة تجاوبت فى جوانبه . "زيد رجال الحامية لأنهم أطلقوا النار على إخوانهم . أنهم يستحقون الأعدام !" ثم انزعجوا خلفهم يتعقبونهم فى كل قاعات السجن ويقتلونهم حيث ثقفوهم . وبعد أن نفعوا غلة انتقامهم بكثرة ماقتلوا وحطموا ساروا فى موكب حافل ظافر وطاقوا أنحاء المدينة مهرجين معردين حتى أدركهم الأعياء فهجعوا . وعاد إليهم شىء من الهدوء فأخذوا يفكرون فى وسائل الدفاع عن أنفسهم إذ لابد أن يأتى دور الحكومة فتزل العقاب بالثأرين فقصوا ليلتهم فى تحصين المدينة بأن خلعوا الأفاريز وأقاموا المتاريس وحفروا الخنادق واستكثروا من الحراب والرصاص . أما النساء فكانت مهمتهن حمل الحصى والحجارة إلى

سطوح المنازل تمهدا لأمطارها على رؤوس الجند عند سيرهم
في الطرقات .

وهكذا اقتضت سحابة ذلك اليوم المشهود — يوم ١٤ يولييه
الذى لا يزال يحتفل به الفرنسيون إلى اليوم في أنحاء العالم بأنه يوم
الشعب ! يوم سيادة الأمة ! يوم عيد الحرية !

الفصل الثامن

يوم ١٤ يولييه في فرساي

مؤامرة البلاط

كان رجال البلاط منذ أصابت نفوذهم تلك اللطمة التي تحدثنا عنها في الفصل الخامس يتآمرون بالجمعية الوطنية وبالشعب ويضعون الخطط لاحداث انقلاب حكومي يعوض عليهم ما خسروه ويعيد اليهم سلطانهم الضائع فتم اتفاقهم على معالجة الموقف بالصورة الآتية :

نظرا لما أعلنته الجمعية الوطنية في قرارات ١٧ يونيه الشهيرة وما ترتب على ذلك من ارتزاع قسط وافر من سلطة الملك لابد أن يعيد الملك على مسامع الجمعية نصريجات ٢٣ يونيه الشهيرة ويحمل أعضائها بقوة السلاح على قبولها والاذعان لما جاء فيها . ثم بعد ذلك — وعلى الرغم من ذلك — يصدر أمره بحل الجمعية ليتخلص منها ومن قراراتها بصفة نهائية .

ونظرا لأن الجمعية قررت فيما قررته أن الضرائب التي كانت تجبى في ذلك العهد ضرائب غير شرعية ولكنها قررت كذلك بقاءها

بصفة مؤقتة طول مدة انعقاد الجمعية لتقيد الحكومة حتى لا تقدم على حل المجلس وإلا سقط حقها في جباية الضرائب طبعت الحكومة ما يزيد على ١٠٠ مليون من الجنيهات وأعدتها لمقاومة ما قد يصادفها من العقوبات في جمع المال بعد حل الجمعية .

وكان البلاط قليل الثقة بمجهود أهل باريس وقوتهم ولم يكن يتصور أنهم سيفوقون إلى انشاء حرس وطني منظم مجهز بالسلاح الكافي . ولم يكن يفهم كذلك أن الحركة ستتجاوز المظاهرات وتدخل في دور العصيان المسلح . فعول على ما عول عليه من حل الجمعية الوطنية والضرب على أيدي الثائرين وكان ذلك يوم ١٤ يولييه تقسه الذي سقط فيه الباستيل . وكانت الجمعية على شيء من العلم بما بيت لها البلاط من النوايا . وكانت قد أوفدت إلى الملك وفدين على أثر ما كان يصل إليها من أنباء الاضطرابات الواقعة في باريس تلمس منه سحب الجنود من العاصمة . ولكن الملك لم يعر أحد هذين الوفدين شيئا مما يجدر بهما من الاهتمام . فلما جاءت أنباء الباستيل جلست الجمعية تعد وفدا ثالثا لمقابلة الملك وإعادة التماساتها السابقة على مسامحه ووقف ميرابو يزودهم بنصائحهم قائلا :

”أبلغوه أن جنوده الذين غمرونا بقضهم وقضيضهم قد غمرتهم أيدي أمرائه وأميراته وحاشيته بالتحف والهدايا والمنح . أبلغوه أن هؤلاء الجنود الأجانب بعد أن امتلأت أفواههم ذهباً ونحماً باتوا يتغنون باخضاع فرنسا ويتوعدون بتثبيت الحرس الوطنى “ .

ولكنه ما كاد يتم كلامه حتى أقبل الملك وكان قد وقف على حقيقة ما وقع فى باريس . وطارت نفسه اشفاقاً من هول العواقب . فأرسل الى الجمعية من يعلنها بأنه قادم ليطمئن أعضاءها بنفسه على حسن نواياه . فقابل الناس هذا الخبر بالاستبشار والتهايل ولكن ميرابو حذر زملاءه من أن يسترسلوا فى عواطف قد تكون سابقة لأوانها ثم عقب بقوله . ” فلننظر إذن ما هى تلك النوايا الحسنة التى يريد جلالتة أن يفضى بها إلينا . إن دماء إخواننا تسيل فى باريس فليكن احترامنا الحزين هو أول ما يقابل به الملك ثواب هذا الشعب التعس . أن فى صمت الشعوب درساً للولوك ! “ فعاد المجلس إلى هدوئه وسكونه الذى لازمه طول الأيام الثلاثة الماضية .

ودخل الملك بغير حراس . ولم يكن خلفه إلا أشقاؤه الأمراء فقابلهم الأعضاء فى أول الأمر بالصمت العميق . ولكنه تقدم إليهم

وخطبهم قائلاً أنه يثق في حكمة تصرفاتهم وأنه اعتماداً على حبهم وولائهم له قد أمر بسحب الجند من باريس وفرساي وأنه يقول على اخلاصهم في تلافى الحالة التي وصلت إليها باريس . فقبلت كلماته الأخيرة بالارتياح التام والتصفيق . وقامت الجمعية بكامل هيئتها فأحاطت بعربته وشيعته الى قصره وسط التهليل والهناف . ثم عاد فصرح بعزمه على استعادة نكر وطلب الى المجلس أن يتوسط بينه وبين الوزير وأن يعمل على إعادة حسن التفاهم بينه وبين الشعب .

وفي ١٥ يولييه سار بهذه الأنباء السارة وفد الى باريس فتلقاه الناس بالترحيب والحفاصة واتفقت الكلمة على أن ينصب (باي) رئيس الجمعية محافظاً لباريس وأن يتولى الجنرال لافاييت رئاسة الحرس الوطني .

وسافر الملك من فرساي الى باريس في ١٧ يولييه ليعزز بظهوره شخصياً روح التفاهم الجديدين الحكومة والشعب . ووافق على تعيين باي ولافاييت في مكانيهما . ورأى الثوار اكراماً له أن يضمنوا لون الملكية الأبيض الى لونيهما الأزرق والأحمر فتألفت من ذلك الراه الفرنسية المعروفة اليوم .



الرئيس باي (Bailly)

وفشلت بذلك مساعي البلاط في احداث الانقلاب الحكومى الذى دبروه . وفر كثير منهم الى ايطاليا وغيرها وأعيد نكر . ودخل حدود فرنسا دخول القائد اذا عاد الى وطنه من ميدان القتال وعلى رأسه أكاليل النصر . ولكن لا ينبغي أن ينسى الانسان أنه لم يكن مدينا بمركزه هذا الذى حصل عليه من نفوس الفرنسيين لما قام به من جلائل الأعمال . ولكنه كان مدينا به لما لاقى من الارهاق والاضطهاد على يد الملك والبلاط .

الفصل التاسع

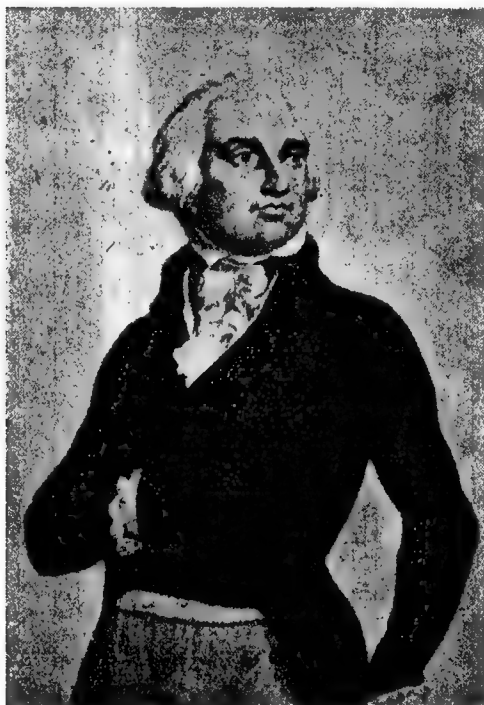
آثار سقوط الباستيل

يجدر بنا قبل أن نختم هذه المرحلة من تاريخ الثورة أن نتف قليلا لتأمل فيما أحدثه سقوط الباستيل من النتائج الجسام .

لقد كانت المعركة الدائرة بين الشعب والحكومة قبل يوم الباستيل معركة كلامية والتزاع فيها نزاعا سياسيا لا يتعدى القول واصدار القرارات . فالجمعية الوطنية أصدرت قرارات ١٧ يونيو فرد عليها الملك بمناورة ٢٣ يونيو ونجح نواب الشعب في ضم بعض نواب الطائفتين الآخرين اليهم يوم ٢٤ وأعقب ذلك تسليم الملك في ٢٧ واصداره الأوامر الى هؤلاء النواب بأن ينضموا الى الطائفة الثالثة . كل ذلك كما بينا كان صراعا في ميدان القول والسياسة وكان لابد أن ينتقل الصراع يوما ما الى ميدان العمل فتقف قوة مسلحة أمام قوة مسلحة أخرى ولقد وقع ذلك في ساحة الباستيل يوم ١٤ يولييه وخرج الشعب ظافرا من أول معركة دموية وقعت بينه وبين الحكومة كما خرج ظافرا من جميع المعارك (الدبلوماسية) التي سبقت ذلك .

ولكن لا ينبغي أن ينسى الانسان أن رجال الجمعية الوطنية وأهل الطبقة الوسطى لم يكونوا ينظرون بعين العطف الى هذا الفوز الباهر الذى أحرزه الشعب . وهذا الاندفاع الشديد الذى دلت بوادره على وعورة الطريق التى سيركبها العامة فى معارضتهم للسلطة القائمة . ولقد زاد الطين بلة أنه ظهر فى هذا الموقف العصيب من جعل دأبه أن يصطاد فى الماء العكر كالدوق أورليان بن عم الملك فإنه بينما كان باي ولافايت يعملان على المحافظة على النظام وبينما كان المجلس يحاول تحقيق رغبة الملك فى الوساطة بينه وبين الشعب كان الدوق أورليان هذا وأمثاله يثيرون خواطر الشعب ويدفعونه الى الثورة والعصيان ، بل بينما كان باي يعمل ليل نهار لتنظيم أعمال لجنة التموين التى أنشئت فى باريس لوقاية أهلها من المجاعات وارتفاع الأسعار كان دوق أورليان يعمل فى الخفاء على عكس هذه الجهود وإحباط هذه المساعي المشكورة فكان يشتري الكميات الهائلة من القمح ويملاؤها خزائنه ليخرجها من السوق ويساعد بذلك على استحكام الأزمة واشتداد الضيق ^(١) .

ولقد كان الدوق أورليان هذا فى أول أمره طامعا فى الملك والوصول الى العرش ولا سيما بعد أن رأى عقم الملك والملكة وأنهم



لوی فیلیپ — دوق اولیان

ظلا من سنة ١٧٧٠ الى سنة ١٧٦٨ دون أن يكون لهما عقب .
فلما عولج الملك سنة ١٧٧٧ ووضعت الملكة بتا سنة ١٧٧٨ ثم
غلاما سنة ١٧٨١ ضاع أمله وأراد أن ينتقم لنفسه باحراج مركز
الملك على النحو الذى أسلفت لك وبإثارة الاشاعات السيئة حول
المللكة والويل من سمعتها واخلاصها للملك . وكان ذلك عليه هينا سهلا
بعد ما رأى الناس من سلوك الملكة واستهتارها وبعد ما سمعوا
عنها في قضية الكردينال دى روهان من أنها كانت تكتب هذا الرجل
سرا وأنها قابلته ذات ليلة في ناحية من نواحي حديقة القصر .
وأنها كلفته أن يشتري باسمها عقدا ثميناً من المناس النادر — وعلى
الرغم من أن التحقيق أثبت أن تلك المكاتبات كانت زائفة لم تكتبها
المللكة وأن المقابلة نفسها كانت زائفة أيضا لأنها تمت بين الكردينال
وبين سيدة أخرى تشبه الملكة في شكلها . وأن الكردينال كان
مخدوعا في كل ما حصل وأنه كان حسن النية في كل ما فعل . فان
الدوق أورليان وأمثاله استغلوا هذا الحادث لمصالحهم وأثاروا حول
اسم الملكة التهم والشكوك ليقسنى لهم تحقيق اطباعهم وتنفيذ نواياهم .
ولقد فتح دوق أورليان هذا حدائق قصره للشعب فكانوا
يجمعون فيها ويرسم لهم بنفسه خطط المظاهرات ويملى عليهم صور
الهنات ويمدحهم بالمال والآراء ويطلقهم على خصومه ويحرشهم

بهم طمعا في اسقاطهم والوصول الى العرش . وكان ذلك سببا
في استعصاء الأزمة على من حاول علاجها من المصلحين .

تلك كانت حالة الطبقات المختلفة عقب سقوط الباستيل . فأما
السوقة من أهل باريس فقد أضراهم هذا النجاح وزاد ضرورتهم
ما كان يغريهم به دوق أورليان وأمثاله للنكاية بالملك والبلاط .
وأما رجال الجمعية وأهل الطبقة الوسطى فكانوا يحذرون الشعب
ويراقبون حركاته بغاية الاحتياط حبا منهم في المحافظة على النظام .
وأما الملك فكان يريد التقرب من الشعب والتحبب اليه طمعا في تهدئته
واخضاعه . وأما البلاط فكان لا يزال على عمايته يفكر في الانتقام
وفي إعادة العهد القديم .

أما في الأقاليم فما كادت تصل أنباء الباستيل الى أهلها ويقفون
على ما جرى في باريس من أعمال العنف حتى سرت اليهم العدوى
وأحبوا أن لا يكونوا وراء أهل باريس في الشهامة والوطنية فأعلنوا
العصيان وامتنعوا عن دفع الضرائب المستحقة عليهم للأشراف
ثم قاموا الى قلاعهم وهي في نظرهم تمثل الباستيل فدمروها
وأحرقوها . ثم أوقعوا في أهلها قتلا وتميلا . وانتقموا لأنفسهم
من مظالم الأجيال السالفة في أشخاص معاصريهم من الأشراف !

الفصل العاشر

مساء ٤ أغسطس

خاتمة العهد القديم

عرفت أن المركز لافاييت قائد الحرس الوطني كان زعيم النبلاء الأحرار الذين أزرروا الثورة وجاهرُوا بتأييد مبادئ الحرية والمساواة وكان قد اشتهر قبل حوادث الثورة بمحاربته في صفوف الأمريكان في حرب استقلالهم . فلما أخذت الجمعية الوطنية في فرنسا على عاتقها وضع دستور للبلاد تقدم إليها لافاييت هذا باقتراحه الوجيه الذي رأى فيه أن تبدأ الجمعية عملها بتقرير مبادئ عامة لحقوق الانسان على مثال اعلان الأمريكان وثيقتهم المشهورة التي ضمنوها حقوقهم في الاستقلال في مؤتمر فيلادلفيا سنة ١٧٧٦

فبدأت الجمعية لتناقش في تقرير هذه المبادئ في اليوم الرابع من شهر أغسطس سنة ١٧٧٩ ولكن رفع للجمعية في مساء ذلك اليوم تقرير هام عن الفوضى التي كانت ضاربة أطنابها في الأقاليم على أثر ما وقع فيها من التخريب بعد سقوط الباستيل .

وتلى هذا التقرير على الأعضاء وكان مما ورد فيه أن الخطابات تترى من جميع الأقاليم وفيها أن ممتلكات الناس على اختلاف أنواعها أصبحت نهبا يتقاسمه العابثون الأشرار . وانهم يحرقون قصور الأشراف في بعض الجهات ويخربون الأديرة ويسلبون كل ما وصلت اليه أيديهم في مزارع الأغنياء . وانهم قد كفوا عن دفع ما عليهم من الأموال الأميرية والضرائب الأقطاعية . وان القوانين أصبحت ملغاة لا عمل لها والحكام أصبحوا صورا لا سلطان لهم .

فأرأت الجمعية ازاء هذه الحالة أن تعمل على تهدئة الشعب من جهة وتحقيق رغباته من جهة أخرى بأن تعلن انتهاء العهد القديم . وبطلان جميع الامتيازات ولكنها أشفقت أن يكون مثل هذا الاعلان مدعاة الى رجوع الملك الى صف الأشراف وسببا في احداث مشا كل جديدة غير أن الله وفقها في الوصول الى هذه الغاية توفيقا تاما اذ قام أحد الأشراف واقترح على زملائه أن يتزلوا عن امتيازاتهم فقبول اقتراحه بالتصفيق الشديد وصيحات الاستحسان العالية واهترت أريحية الأشراف تحت تأثير هذه الحماسة البالغة وغلب الانفعال على عواطفهم ورأوا أن الظروف تقضى باندماجهم في جمهور الشعب وأخذوا يتناقشون في الأدلاء بأمثال هذا الاقتراح.

ويفأحر كل واحد منهم بأن يعرض على الجمعية النزول عن حق من الحقوق القديمة سواء أكان يملكه أم لا يملكه . وبقية الأعضاء من حولهم يقابلون هذه المباراة بالتحية الكريمة والهناف الحاد الى أن انتصف الليل وقرارات النزول تنال سراحا بعضها فوق بعض حتى لم يعد يبقى شىء من أثار العهد القديم .

وختمت الجمعية قراراتها فى تلك الليلة المشهورة بأن أعلنت رضاءها عن الملك لويس السادس عشر وتبرعت له بلقب "معيد الحرية الى فرنسا" .

وأقيمت قبيل الصباح صلاة شكر لله على هذا التوفيق .

ولقد كتب بعض أعداء الثورة عن هذه الليلة فوصفها بأنها كانت (سنت برتلميو الملكية) والحقيقة أنها لم تكن إلا (سنت برتلميو الامتيازات ومساوى الملكية) فانها اكتسحت ردائل عهد الأقطاع وأعلنت انتهاء وحررت أعناق الناس من أغلال السخرة . ومن قيود الصيد وارهاق الضرائب الفادحة ووقفت حدا فاصلا بين عهد قديم كان كل شىء فيه ملكا لبعض الأفراد وعهد جديد أصبح كل شىء فيه ملكا لمجموع الأمة . لقد غيرت تلك الليلة وجه فرنسا فاصبح الفرنسيون جميعا متساوين فى الحقوق . وأصبح لكل واحد منهم الحق فى شغل أى منصب من المناصب

العالية . وفي أن يطمع في امتلاك شيء لنفسه خاصة دون أن يكون لغيره حقوق عليه . وفي أن يختار لنفسه ما شاء من المهن والصناعات بعد أن كان محروما من هذا الحق أو مقيدا في استعماله بأثقل القيود . ولقد تمت في تلك الليلة ثورة لا تقل عن ثورة ١٤ يولييه في نجاحها وبعد آثارها . فانها منحت الأمة حق السيادة على المجتمع كما أن ثورة ١٤ يولييه منحتها السيادة على الحكومة .

وهكذا مرت حوادث الثورة سراعا تباعا ففي ١٧ يونيه قضى على ما بين طوائف الأمة من الفوارق . واتقلبت الجمعية العمومية الى جمعية وطنية .

وفي ٢٣ يونيه قضى على نفوذ الحكومة الأدبي .

وفي ١٤ يولييه قضى على سلطتها المادية — وورثت الجمعية الوطنية ذلك النفوذ كما ورث الشعب هذه السلطة .

وأخيرا حل يوم ٤ أغسطس وكان خاتمة هذا الفصل الأول من رواية الثورة وهو الفصل الذي انتقلت فيه السلطة من يد الى يد . ووقعت فيه تلك التغييرات الأولية التي أقيم عليها بنيان الثورة .
فيا بعد .

الباب الخامس

من ٥ أغسطس ١٧٨٩ - ٣٠ سبتمبر ١٧٩٠

الجمعية الوطنية تضع الدستور

الفصل الأول

حقوق الانسان

عاد المجلس إلى البحث في حقوق الانسان وتقريرها وكان من رأى الكونت ميرابو أن لا تقرر الجمعية هذه الحقوق إلا بعد وضع الدستور نهائيا لتكون بمثابة خلاصة لأحكامه . ولكن الجمعية أخذت باقتراح المركز لافاييت ورأت أن يكون تقريرها سابقا على وضع الدستور لتكون بمثابة أساس لقواعده وليبقى اعلانها على مدى الدهور صكا تحترمه الحكومات في علاقاتها مع الشعب . ولقد اكتسبت وثيقة «حقوق الانسان» مركزا ساميا في جميع البلاد الأوروبية واصبحت في نظر شعوبها نبراسا يهتدى به

وعلى أصولها تتركز اليوم فعلا دساتير الأمم الحرة في أوروبا وفي سائر أنحاء العالم .

واليك ترجمة هذه الوثيقة التاريخية المشهورة ^(١) :

” أن نواب الشعب الفرنسى المجتمعين فى هيئة جمعية وطنية لما رأوا أن ما يتزل بالمجتمع الانسانى من المصائب والشقاء وفساد الحكومات يرجع إلى سبب واحد وهو جهل حقوق الانسان أو تجاهلها أو العبث بها . قد قرروا أن يصدروا إعلانا عاما ببيان حقوق الانسان الطبيعية المقدسة التى لا يصح أن تمتد اليها يد العبث والمساومة وذلك ليكون هذا الاعلان راسخا فى أذهان بنى الانسان يذكّرهم على الدوام بحقوقهم وواجباتهم ولتحترم أعمال السلطة التنفيذية المنطبقة على الأغراض التى يصبوا اليها المجتمع الانسانى ولتكون مطالبة الناس بحقوقهم مؤسسة من الآن على مبادئ واضحة لا نزاع فيها ولا جدال فيكون قوام هذه الحقوق صيانة الدستور وضمانة سعادته المجموع .

لذلك تعلن الجمعية الوطنية بعناية الله العلى الأعلى الحقوق الآتية للانسان :

(١) الجمعيات الوطنية (الراضى) .

(١) يولد الناس ويعيشون احرارا متساوين في الحقوق لا تمييز ولا تفاضل بينهم إلا فيما تقتضيه المصلحة العامة .

(٢) الغاية من كل مجتمع انساني صيانة الحقوق الطبيعية للانسان . تلك الحقوق التي لا تزول مهما تقادم عليها الزمان وتعاقب الجديدان وهي الحرية والملكية وطمأنينة النفس ومقاومة الاضطهاد .

(٣) كل سلطة مصدرها الشعب وحده ولا يحق لأى فرد أو أية جماعة أن يأمر أو ينها إلا اذا استمدوا السلطة من الشعب .

(٤) الحرية تنحصر في امكان عمل كل ما لا يضر بالغير . فلكل امرئ أن يتمتع بحقوقه الطبيعية في الدائرة التي لا تؤذى تمتع الناس بتلك الحقوق وتحديد هذه الدائرة موكول إلى القانون .

(٥) ليس للقانون أن يحظر على الناس من الأعمال إلا ما يعود بالضرر على المجتمع وكل ما لا يمنعه القانون مباح ولا يحق إكراه امرئ على عمل لا يحتمه القانون .

(٦) ان القانون هو مظهر الارادة العامة للأمة ولأهل البلاد جميعا الحق في أن يشتركوا في وضعه بأنفسهم أو بواسطة نوابهم والقانون واحد بالنسبة للجميع سواء أكان مانحا أم مانعا حاميا أم معذرا والناس سواء أمام المراتب والوظائف العامة لا تفاضل

بينهم إلا في اختلاف كفاءاتهم ولا تمييز إلا فيما تقتضيه فضائلهم ومواهبهم .

(٧) لا يصح اتهام انسان أو حبسه أو القبض عليه إلا في الأحوال المبينة في القانون بشرط اتباع اجراءاته وكل من ينفذ أمرا استبداديا مخالفا للقوانين أو يأمر به أو يوعز بتنفيذه يستحق العقاب وعلى كل إنسان يستدعى أو يقبض عليه طبقا للقانون أن يطيع حالا واذ عصى أو قاوم يستوجب العقاب .

(٨) لا يصح أن يحتوى القانون إلا العقوبات التي تستلزمها الحاجة الاجتماعية ولا يصح عقاب انسان إلا بمقتضى قانون صدر ونشر قبل ارتكاب العمل .

(٩) مفروض ان كل انسان برئ حتى تثبت إدانته واذا دعت الضرورة للقبض على امرئ قبل التحقق من ادانته فكل شدة تستعمل معه دون أن يدعو اليها التأكد من بقاءه رهن السلطة تستوجب العقاب الشديد .

(١٠) لا يؤذى الانسان بسبب آرائه ولو كانت دينية مادام التصريح بها لا يضر بالنظام العام الذي يقرره القانون .

(١١) حرية الجهر بالآراء والأفكار من حقوق الانسان المقدسة . فكل امرئ أن يتكلم ويكتب ويطبع بملء الحرية

بشرط أن لا يسيء استعمال هذه الحرية في الأحوال التي بينها القانون .

(١٢) ان ضمان تمتع الناس بحقوقهم يستوجب إيجاد سلطة عمومية فهذه السلطة منشأة لمصلحة المجموع لا لمصلحة من يوكل اليهم إدارتها .

(١٣) لبقاء هذه السلطة العمومية ولإدارة الحكومة عموما يجب جباية الضرائب العامة وهذه الضرائب يجب توزيعها بالسواء بين الأفراد كل بحسب طاقته .

(١٤) لأهل البلاد جميعا الحق في أن يقرروا بأنفسهم أو بواسطة نوابهم الضرائب التي تستلزمها المصلحة العامة . وقريرها يكون بملء الحرية ولهم أن يحدّدوها ويحدّدوا قواعد ربطها وطريقة جبايتها ومدتها وطريقة انفاقها .

(١٥) للهيئة الاجتماعية أن تحاسب كل موظف عمومي وتراقبه في أعمال وظيفته .

(١٦) كل هيئة اجتماعية لا ضمانة فيها لحقوق الانسان ولا فصل فيها بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية تعتبر محرومة من الدستور .

(١٧) من حيث أن الملكية حق مقدس لا يصح العبث به
فلا يحل حرمان أحد من ملكه إلا اذا اقتضت ذلك المصلحة العامة
طبقا لنصوص القوانين وفي هذه الحالة يجب تعويض المالك
عن ملكه .

الفصل الثاني

الدستور

بعد أن فرغت الجمعية من اعلان حقوق الانسان أخذت لتناقش في مواد الدستور الذى قدمته اليها لجنة كانت قد كلفت بوضع مشروع لذلك .

وكانت أول نقطة ثار حولها التراع ما عرضنه اللجنة من جعل السلطة التشريعية فى يد مجلسين : مجلس للنواب تنتخبه الأمة ، ومجلس للشيخ يكون للملك حق تعيين مائتين من أعضائه . ولكن اتفقت الكلمة أخيرا على أن تكون السلطة التشريعية فى يد مجلس واحد تنتخبه الأمة .

ثم جاءت مشكلة علاقة الملك بهذه الهيئة التشريعية . وكان مشروع اللجنة يقضى بأن يجعل للملك الحق فى أن يمتنع عن الموافقة على أى قانون تعرضه الهيئة فيقف بذلك نفاذه ولكن ثار لذلك حزب اليسار وهو حزب الثورة وكبر عليه أن يرى مصالح ٢٥ مليوناً من الأنفس تترك تحت رحمة رجل واحد وكان دوق أورليان يعمل خارج المجلس كذلك على إحباط هذا رأى وتضييع هذا الحق على

المملك . فكان يعلم الناس أن يقولوا (à bas le Veto) - "ليسقط
القيتو" - وهم يكررون ذلك خلفه وأغلب ظنهم أن هذا (القيتو)
الذى يهتفون بسقوطه هو نوع حديد من الضرائب ولا يعلمون أنه
حق المملك فى رفض القوانين ! .

وأخيرا قر قرار الجمعية على أن يمنح المملك هذا الحق مع تقييده
بشروط تجعل الكلمة النهائية فى اصدار القوانين للأمة نفسها ولو
كان المملك معارضا لها^(١) .

وبذلك أصبحت الجمعية التشريعية فى الدستور الجديد تملك
حق عرض القوانين وسنها وتقرير الضرائب ووضع الميزانية ومراقبة
أعمال الادارة . وأصبح لها كذلك حق اعلان الحرب وعقد الصلح
بناء على طلب المملك وأن تحاكم الوزراء و كبار الموظفين أمام محكمتها

(١) "حق القيتو" :

تعرض القوانين على المملك ولا بد من موافقة عليها لتكون نافذة . فاذا عرض
عليه قانون ولم ير الموافقة عليه لم ينفذ ولكن يكون للجلس حق فى أن يعرضه عليه مرة
أخرى بعد مضى سنتين . فاذا بقى المملك على رأيه لم ينفذ أيضا . ولكن اذا عرضه
المجلس للمرة الثالثة بعد سنتين آخرين فلا عبء برأى المملك ولا بد من قضا القانون
سواء أوافق عليه المملك أم لم يوافق .

العليا وأن تحاكم أمام هيئتها كل شخص متهم بالتآمر على سلامة المملكة . أو على الدستور . وجعلت لنفسها كذلك الحق في تنظيم طريقة منح الرتب والنياشين على قاعدة مكافأة الأفراد على الخدمات التي يؤدونها للمجموع .

الفصل الثالث

يوم ٥ و ٦ أكتوبر

مظاهرة النساء

وبينا كانت الجمعية جادة في نظر هذا الدستور ومناقشة نصوصه وتقرير مبادئه كان لا يزال عمال سوء يثيرون الفتن والقلاقل وينفثون سمومهم في صدور الشعب الساذج سواء أكان ذلك في باريس نفسها أم في الأقاليم . وكانت على رأس هؤلاء دائماً دوق أوليان الذى مابرج يتطلع للعرش . وكانت خطة أنصاره ترمى الى التخلص من الملك بأحد أمرين : إما قتله والفراغ من أمره مرة واحدة ، وإما إرهابه وحمله بذلك على الفرار من فرنسا ليخلو الطريق أمام الدوق . ولكن لويس لم يرض أن يترك عرشه لابن عمه لقمة سائغة يزدردوها بهذه السهولة فلبث الدوق يتربص حتى تحين له فرصة مناسبة لتحقيق أغراضه

... ..

وكان الملك يقيم في قصره بفرساي جريا على عادة الملوك منذ انتقل لويس الرابع عشر من باريس الى تلك الضاحية سنة ١٦٨٩

أى قبل الفترة التى ندرسها بقرن كامل . فكان أهل باريس يظنون أن بقاء الملك بعيدا عن عاصمة ملكه يجعله غريبا عنها نوعا ما . وهو لذلك لا يعطف على أهلها ولا يفتأ رجاله يدبرون دسائسهم لخصومهم فيها وهم فى مأمن من رقابتها .

وحدث أن أسعار الغلال والخبز ارتفعت ارتفاعا باهظا فى المدينة تبعا لضعف المحصول فى ذلك العام . فضج الناس بالشكوى وألب خواطرهم ما كان يروجه أعداء الملك والملكة عن عيشة البذخ التى كانا يعيشانها فى قرساي . فاتجهت أنظار الشعب إلى تلك الضاحية .

وأخيرا حدث أن الملك استدعى فرقة (الفلاندرز) لتعزيز قوة الحرس فى قصره وليقوم بواجب الدفاع عن نفسه إزاء ما تظهره الأحزاب المتطرفة فى باريس من روح التمرد فزاد ذلك فى مخاوف الناس وراجت الاشاعة بأن البلاط يعد حملة منظمة للقضاء على الثورة ورجالها . وكانت كل الظواهر تؤيد ذلك . فان ضباط الحرس أقاموا وليمة فاخرة لرجال الفرقة الجديدة وبالغ البلاط فى تكريمهم والحفاوة بهم . فسمح لهم بإقامة الحفلة فى مسرح القصر الذى لم تكن تقام فيه إلا أخص حفلات الملك . كما سمح لهم بفرقة الموسيقى الملكية للمرة الأولى فى تاريخ حفلات الحرس وكان الضباط

أثناء الوليمة يشربون نخب الملك والأسرة المالكة . ولم يمر نخب الأمة على لسان واحد منهم طوي السهرة . وعند منتصف الليل دخل الملك عليهم في لباس الصيد والملكة مستندة اليه باحدى ذراعيها وولى العهد على ذراعها الأخرى فتعالى اهتاف من كل جانب وشرب الجميع نخب الأسرة المالكة من جديد وانصرف الملك عقب ذلك وبدأت عريضة الضباط فرموا بشارة الثورة المثلثة الألوان الى الأرض ووطنوها بأقدامهم ثم انسلوا الى حجرات القصر حيث تلقاهم نساء البلاط بالتماني وغمرنهم بشرائط الحرير وشارات الشرف^(١) !

وأعيدت هذه الحفلة بفخامتها وزيتها مرة أخرى في الثالث من شهر أكتوبر . وما كان أغنى الملك عن مثل هذه الحفلات . فانه أراد أن يلقى بها الرعب في قلوب الباريسيين فلم يزد على أن أشعل بها حماسهم وضاعف بها سوء ظنهم ؛ وأراد أن يدفع بها مطامع باريس عن فرساي فلم يزد على أن جعل فرساي بها نصب عين باريس وما بلغت هذه الحفلات باريس حتى اضطربت لها النفوس وبات الناس ولا حديث لهم إلا إفساد هذه التدابير التي تبيت لهم في فرساي .

وحدث أخيرا (٥ أكتوبر) أن بلغت أزمة الخبز أشدها في باريس فافتحمت فتاة صغيرة أحد المخافر وتناولت منه طبلا وخرجت عدوا في الطرقات تضربه وهي تصيح "الخبز! الخبز!" فأحاط بها في مثل لمح . البصر جماعة من النساء . وتقدم الجميع الى المحافظة وهن يزددن عددا في كل خطوة . فدخلنها رغم حراسها وهن يصحن في طلب الخبز والسلاح . ثم كسرن الأبواب وتسلحن بما أصابت أيديهن في المخازن وخرجن قاصدات فرساي وقد حاول لافاييت أن يحول دون ذهابهن ولكن ذهبت جهوده . أدراج الرياح وانطلق النسوة في طريقهن وكان ذلك حوالى الساعة السابعة مساء .

فلما بلغن قصر فرساي كانت السماء مكفهرة تنذر بالمطر الغزير وكان الظلام قد خيم على الضاحية واضطرب رجال الحرس لمقدمهن وأسرعوا الى سلاحهم ولكنهم وقفوا في أماكنهم استعدادا للدفاع ولم تكن تبغى النسوة على كل حال أكثر من أن يعرضن على الملك شكايتهن . غير أنه لم يكن من السهل أن يجتمع الغريمان في ساحة واحدة ثم يتفرقا من غير احتكاك أو قتال . وقد وقع احتكاك بالفعل واشتبك الفريقان . ولكن ما قاسته المتظاهرات من عناء الطريق . ورداءة الجئ وهطول المطر جنح بهن الى السلم . وأخيرا أقبل .

لافايت بجنوده فعاد الهدوء وخيم السلام وانصرفت جموع النساء خارج القصر . وذهب أفراد الأسرة المالكة الى مضاجعهم حوالى الساعة الثانية صباحا . وظل لافايت يطوف بالقصر وبمن نام حوله من المتظاهرات حتى كانت الساعة الخامسة صباحا ثم انصرف بدوره ليأخذ قسطه من الراحة والنوم .

ولكن هب فى صباح اليوم التالى بعض المتظاهرين من نوابهم حوالى الساعة السادسة صباحا فلمحوا بابا مفتوحا من أبواب القصر فانسلوا منه الى الداخل وأبصروا أحد رجال الحرس فى نافذة من النوافذ فأخذوا يتفكهون بسبه . فدفعته حماقته الى أن يطلق عليهم النار بفرح واحد منهم فهجموا عليه وعلى من معه وبدأت المعركة التى لم يكن بد من وقوعها وقد وقف العدوان وجها لوجه . وأوغل المتظاهرون فى أجنحة القصر حتى بلغوا غرفة الملكة فلم يجدوها بها فصبوا غضبهم على فراشها وأثخنوه طعنا وتمزيقا وكادوا يصلون الى الملكة نفسها لولا أنها أُنذرت قبل ذلك بقليل ففرت الى غرفة الملك وليس عليها من الثياب ما يكاد يسترها .

وبلغت هذه الأنباء لافايت فأسرع على ظهر جواده الى القصر ففرق المتظاهرين . وألقوا رجال القصر من أيديهم . ولكن وقف الناس تحت شرفة الملك يصيحون به وينادونه



لافايت

(Le Roi à Paris ! Le Roi à Paris !) نريد الملك بباريس !
 فأشرف عليهم وهز لهم رأسه بالموافقة فهتفوا له . وأصرت الملكة
 على أن تصحبه فرأى لافاييت ما سيهدد الرحلة من الخطر اذا لم
 ينشأ جو من التفاهم الحسن بين الشعب والملكة كذلك فدخل عليها
 وطلب أن تخرج معه الى الشرفة ففعلت . فلوح لافاييت بيده الى
 المتظاهرين ثم أمسك يد الملكة ورفعها الى شفتيه بالاحترام فهتف
 لها الشعب . ثم تقدم لافاييت أخيرا إلى أحد رجال الحرس ووزع
 الشارة المثلثة التي كانت في قبعته هو ووضعها على رأس زميله
 ثم عاتقه أمام الجماهير فهتفوا بصوت واحد : « ليحي الحرس » !
 وهكذا انتهت بفضل لافاييت حوادث هذين اليومين التاريخيين
 على أحسن وجه ممكن من التفاهم والوئام^(١) .

وأخذ الناس ينسلون بعد ذلك الى باريس وهم ينشدون
 أناشيد الظفر والنجاح ويبشرون كل من يلقاهم بأنه لا خوف على
 باريس بعد اليوم من الغلاء لأنهم (أتوا بالخباز والخبازة وابن الخباز
 الصغير) يعنون بذلك الملك والملكة وولى العهد ! .

وبذلك تحقق نصف برنامج دوق أورليان إذ لم يبق بعد وجود
 الملك وسط باريس إلا إرهابه وحمله على الفرار .

الفصل الرابع

فرار الملك

عاد الملك فعلا الى باريس في السادس من شهر أكتوبر سنة ١٧٨٩ وتبعته الجمعية الوطنية وأصبحت تعقد اجتماعاتها في العاصمة وسط الشعب الباريسي الذي كان يعكر عليها صفو اجتماعاتها وهي بعيدة عنه في فرساي . ولكن اشتهار أمر دوق أورليان واقتضاح دسائسه كانا سببا في أنه أرغم على ترك البلاد فغادرها بأمر الملك الى انجلترا حيث أقام حتى سنة ١٧٩١ وقر نائر الشعب نوعا ما من بعده على أن هذا الهدوء لم يتعد الظاهر إذ انصرفت جهود الشعب في هذه الفترة الى تأليف الأندية والأحزاب وكان في مقدمة هذه الهيئات الجديدة حزب (اليعقوبيين) وهم جماعة المتطرفين الذين كانوا يعادون الملك ويريدون القضاء على نفوذه وكانوا يعقدون اجتماعاتهم في دار قديمة اتخذوها ناديا لهم بعد أن كانت في الأصل لطائفة دينية تعرف باسم (اليعاقبة) (Jacobins). فاتتحلوا لأنفسهم هذا الاسم وورثوه عن أصحابه الأولين . وكان هذا الحزب كلما ازداد توسعه وكثر أفراداه وانتشرت

فروعه تطرّفت مبادئه وتهوّرت ميوله . وكان ذلك سببا في أن
ينفصل عنه بعض أعضائه الأول الذين اشتركوا في تأسيسه أمثال
لافايت وسيائيس ممن لم يروا مجاراته في هذا التطور الأحق العنيف
وقاموا بتأسيس ناد آخر خاص بهم . كذلك تألف حزب جديد
للأشراف ورجال الدين جريا على ما قامت به الهيئات الأخرى
ولكنهم ظلوا يغيرون اسمه ويبدّلونه حتى صدر أمر البلدية أخيرا
باغلاقه لأنه أصبح مقلّقا للأمن محلا بالنظام .

وبينما كانت هيئات الأمة جادة في تنظيم شؤونها على هذا
المنوال كانت الجمعية جادة في وضع الدستور ومناقشة نصوصه .

أما الملك فانه منذ عودته الى باريس كان على بصيرة بحقيقة
موقفه ولم يكن يخفى عليه أنه سيجن مقيد في تلك العاصمة الواسعة .
وانه كان رهينة في أيدي الثوار يضمنون بها إجابة مطالبهم . فأقلقه
هذا المصير وأخذ يفكر في الاستعانة بزعماء من زعماء الإصلاح
المعتدلين يكون له من النفوذ عند الشعب ما يمكنه من قيادته
واقناعه ويكون له من المتزلة عند البلاط ما يجعله محل ثقته وموضع
اعتماده . ورأى الملك أن هذه الصفات كلها متوفرة في شخصية
ميرابو الذي يكاد يعبد الشعب ويكاد البلاط يعتبره من رجاله .
وكان ميرابو كما علمت ابنا لأحد الأشراف ولكنه في بدء شبابه



ميرابو

وقع بينه وبين والده شقاق بسبب سلوكه الشخصي وانهما كره في الدين وافراده في المملكات فهجر أهله وبلاده وسافر الى هولندا ثم غادرها الى انجلترا ثم عاد الى فرنسا وشاهد الثورة ينفجر بفجورها . فانضم الى جانب الشعب والتف حوله العامة وامتاز بمقدرته الهائلة في الخطابة فكان بين زعماء الثورة أسحرم بيانا وأقواهم لسانا . وكان الميدان ميدان فصاحة وحسن بيان فلم يلبث أن ملك قلوب الناس . وتفوق على غيره من الزعماء وأصبح رجل الساعة وزعيم الجماعة . وما زال كل يوم يمر من أيام الثورة يضيف موقفا مجيدا جديدا الى مواقفه المجيدة السابقة حتى جمع جواد الثورة . وطم سيلها وامتدت . يدها الطائشة الى الملك فأرغم على مغادرة فرساي الى باريس فرأى ميرابو مع زملائه المعتدلين أن الثورة يجب أن تقف عند هذا الحد وأن كل خطوة جديدة يخطوها الثوار ستقترب بهم من هوة الفوضى التي لا صلاح لأحد فيها . وأن الملكية يجب أن تبقى رمزا للسلطة ما دامت الأمة وصلت الى مطالبها الدستورية التي كانت تنشدها ، وبذلك انهكت غايته مع غاية الملك ووقعت بين الرجلين مكاتبات سرية انتهت بتراضى الفريقين في مايو سنة ١٧٩٠ على أن يدفع الملك لميرابو (٦٠٠٠) فرنكا كل شهر ويتولى تسديد جميع ديونه البالغ قدرها (٢٠٠) ألف فرنك في نظير أن يتعهد

ميرابو بأن يدافع عن الملك ويطلع على مجرى الحوادث ويمتد
بارشاده ونصحه .

ولقد وفق ذلك البطل الى تقديم أغلى النصائح الى الملك
فحذره من الأخذ بفكرة الفرار قائلا أن ذلك يكون منه بمثابة
إعلان للحرب على الأمة ونزول عن العرش . ونصحه بأن
لا يعتمد على الأشراف مطلقا في تحسين موقفه وتأيد مركزه
وأبدى له عدم ارتياحه لاقامته في باريس وسط الفوضى
والاضطراب وأوصاه بأن يخرج من قصره جهارا نهارا وأن يسير
في وسط جنده الى مدينة كمدنية (روان) وأن يصدر للأمة قبل ذلك
بلاغا يقول لها فيه أنه يلقي بنفسه بين أحضانها وأنه قد أسىء اليه
من فرساي وأنه اضطهد ووقع تحت الرقابة في باريس . وأنه
يخشى أن يكون هذا الموقف سببا في خروج بعض الناس على طاعة
الجمعية وأنه كان أول ملك في فرنسا أعاد الى الشعب كافة حقوقه
وأنه خالف في ذلك رأى وزرائه وأنصاره وأنه وافق على قرارات
الجمعية الوطنية . وأنه على استعداد أن يضحي بكل شيء في سبيل
تحسين مركز البلاد المالى ويرضى أن يعيش عيشة أى فرد عادى
من أفراد الأمة بما تخصصه له الحكومة من المال القليل وأنه
سوف يدعو الجمعية الوطنية اليه خارج باريس حتى اذا فرغت من

عملها أصدر أمرا بدعوة مؤتمر جديد لاعادة النظر في قراراتها والموافقة عليها . وأنه يرجو أن تحكم الأمة على إخلاصه بما رأت من ماضيه وأنه يريد أن يملك رعيته لا بسلاحه ولكن باحسانه وأنه يعتمد فيما يختص بسلامته وشرفه على ولاء الشعب الفرنسي له ^(١) . وقد قدر ميرابو أن الملك إذا أخذ بهذه الآراء فلا بد أن تنفجر الأثرة على أحسن صورة . غير أن استسلام الملك لزوجته وأعاونها وأخذه بارشادهم دون نصيح ميرابو أفسدا على الرجل رأيه الحكيم وكانت الملكة قد دبرت مشروعا آخر للخلاص وهو يتلخص في مغادرة البلاد ليلا والسير الى الحدود الشرقية حيث يكون المسيو بوييه (Bouillé) حاكم متر على استعداد بجنوده للقائهم . ومن ثم يعبرون الحدود وينضمون الى المهاجرين من أشرفهم وأمرائهم ويتمسون المعونة من حكومات الدول الأوروبية الأخرى لغزو فرنسا واعادة الحكم الملكي فيها من جديد .

وفي هذه الساعة الرهيبة التي كانت فرنسا أحوج ما تكون فيها الى ميرابو شاء القضاء أن يموت ذلك الرجل العظيم وأن ينطفئ بموته آخر بصيص من نور الأمل في التوفيق بين الملك وشعبه . وانهارت بموته عزيمة الملك ولم يبق أمامه إلا أن يعود الى رأى

زوجته ويقبل الدخول في تلك المغامرة الخطرة التي كانت تدفعه اليها .

وفي مساء ٢٠ يونيه سنة ١٧٩١ خرج أفراد الأسرة المالكة واحدا واحدا متخفين بحيث لم ينتبه اليهم أحد من الحرس . والتقوا في طريق قريب من القصر كانت فيه عربة بانتظارهم . وولوا وجوههم شطرمتر . وكان دوق بروفانس شقيق الملك قد خرج في نفس ذلك اليوم وركب طريقا آخر فوصل سالما الى بلجيكا . أما لويس التمس فانه كان أقل منه توفيقا . بل أنه كان أشد الناس خيبة ونحسا فانه بعد أن وصل سالما الى (نارين) القريبة من فردان حيث كان مقررا أن يستبدل جواد مركبته وقف ينتظر في ناحية من البلدة والحيل تنتظره في الناحية الأخرى وكأنه اطمأن لمرور يوم على خروجه من باريس ولأنه أصبح بعيدا بضعة فراعخ عنها قتهاون في أمر نحجبه وقضى سوء الطالع أن يلحقه انسان من أهل تلك الناحية فعرفه ونم عليه وما لبث أن هرع الناس اليه وأحاطوا به ثم أرغموه على العودة الى باريس ! .

واليك ما كتبه أحد الصحفيين المشهورين في ذلك الوقت في صحيفة يصف ما فعله أهل باريس عند سماعهم لهذا الحادث الخطير :

« كانت الساعة العاشرة قبل أن تطلق محافظة باريس المدافع .
 اخطارا للناس بوقوع هذا الحادث الهام . ولكن الناس قبل ذلك
 بنحو ثلاث ساعات لم يكن لهم من شاغل غير هذا الخبر . فكان
 حديثه يسرى في المدينة سريان الكهرباء . وتجسرى به الألسن
 في كل مكان ... " راح الملك ! فر الملك ! " .

وساد القلق على النفوس فكانت تهرع الجماهير الى قصر
 التويلرى لتحقيق بنفسها من صحة الخبر ثم لا تلبث أن ترتد الى
 قاعة الجمعية الوطنية حيث الأعضاء مجتمعون وهم يصرحون للشعب
 بأن الملك عندهم في القاعة . وأنه حريذهب حيث يشاء ! .

ثم تطلع الناس الى زيارة مساكن الأسرة المالكة بعد اخلائها .
 فذهبنا اليها وطفنا بها جميعا وكنا نسأل الحرس : « كيف أمكنه
 الهرب ؟ والى أين ذهب ؟ وهل من الممكن أن نفلت هذه الجثة
 الملكية الضخمة تحت عيونكم ولا ترونها ؟ انكم لا بد تعلمون بهربه
 ورؤساؤكم لا بد متواطئون معه عليه » فكان الحراس لا يجيبون
 على ذلك بكلمة .

وكان حريا بالشعب أن يهتاج ويأتى من أعمال العنف ما يتفق
 مع هياجه ولكن غلبت على الناس روح الفكاهة والاستهزاء فاكتفوا
 بأن حملوا صورة الملك وعلقوها على باب القصر . وحملت إحدى

بائعات الفاكهة فراش الملكة ووضعت فوقه ما معها من الكريز وهي تقول "لقد جاء الآن دور الأمة في النعيم". ووضعت قبعة الملكة على رأس فتاة صغيرة فخلعتها بإباء وألقته على الأرض وداستها بقدمها بكل ازدراء واحتقار. وسار النساء في المدينة يحاذن الرجال. ويصرحن بأنهن سيقمن على حراسة أبواب المدينة قائلات: "أن النسوة هن اللواتي جئن بالملك إلى باريس والرجال هم الذين ضيعوه!".

ولكن مهلا أيتها السيدات وعلى رسلكن. فان هديتكن لباريس لم تكن مما يفخر به الانسان! اه^(١).



وكانت الروح السائدة هي روح الكراهية للوك عامة والاحتقار للويس السادس عشر خاصة. فخطمت تماثيله في الميادين وكسرت عند الباعة وكانت تمجى كلمات "ملك". "وملكة". "وملكي". "وبوربون". "ولويس". "وبلاط" من كل ما نقش عليه سواء في ذلك الصور والألواح والخوانيت والمخازن.

الفصل الخامس عشر

بعد الفرار — قرار بلنتر

اختلفت الآراء في مصير الملك بعد عودته . فأما الجمعية فقتررت إيقافه مؤقتا حتى يتم وضع الدستور فيقدم له ليقسم على احترامه وطاعته ثم تبدأ فرنسا إذ ذاك عهدا جديدا ولكن هذا القرار لم يعجب الأعضاء الملكيين في الجمعية فاحتجوا عليه وانسحب منهم نحو مائتين فلم يحضروا الاجتماعات . وأما المتطرفون من اليعاقبة فقد أعلنوا أن الملك تخلى عن العرش بمحاولته ترك البلاد . وأنه لا بد من إقامة حكومة جمهورية يتولى الشعب أمرها . أو على الأقل لا بد من إقامة ملك آخر .

وأشفق أنصار الدستور من المعتدلين وهم أغلبية المجلس أن ينجح الجمهوريون في دعوتهم فتضيع جهودهم التي بذلوها عامين متوالين في وضع الدستور فأجمعوا أمرهم على مقاومة هذه الدعوة وأنصارها أمثال روبسبير وبتيون (Petion) وبريسو (Brissot) ومارا . ولكن روبسبير أفلح في التأثير على الشعب وتبيجه على رجال الجمعية . فقامت مظاهرة عظيمة تنادى بسقوط الملك

والملكية (١٧ يولييه سنة ١٧٩٠) في حي "الشان دى مارس" فاعترضها الحرس الوطنى وأصدر لافايت أمره بإطلاق النار على المتظاهرين نحر منهم نحو مائتين ما بين قتيلى وجريح وأسفر الميدان عن تفرق الجمهوريين وانهزامهم . ولكن هذا النصر الذى أحرزه لافايت كان قاضيا على سمعته فلم تقم له من بعده قائمة على الرغم من محاولاته الكثيرة لتبرير عمله .

ولعلك 'نتبين من القطعة التالية التى كتبها مارا فى صحيفته — "صديق الشعب" — روح العداء التى كان يحملها الجمهوريون للعتدلين والملكيين من أعضاء الجمعية :

« واهالسداجتكم أيها الباريسيون ! أيمكن أن يخدعكم أولئك المنافقون الى هذا الحد ؟ ألا ترونهم يقتلون المخلصين منكم تمهيدا للقضاء على أديتكم وفض أحزابكم ؟ ألا ترونهم يرمون بالتهبيج كل من يرتفع له صوت بالاحتجاج على فعالهم ؟ لقد أصبح الجهاد السلمى فى نظرهم ثورة وأصبحت أصوات الاستفطاع والتظلم عندهم إجراما وتهبيجا !

ألا أيها المشرعون الأسافل والأدنياء الأراذل . وأيها الأبالسة الذين يأكلون فى بطونهم الذهب والدم . لقد ظننتم أنكم تلقون الرعب فى قلوب الكتّاب من الوطنيين وتشلون أقلامهم بصرامة

عقوباتكم . خاب فالكم ! لقد علمتم كيف ضاعت سدى كل محاولاتكم في النيل من "صديق الشعب" . ولو أنه وفق يوما ما إلى جمع ألفين يسيرون خلفه لتأييده إذن لتقدمهم وسار بهم إلى "موتيه" الجهنمي [يعني لافاييت] فزق صدره في وسط فرقة العبيد التي يرأسها . وإذن لأحرق الملك وبطانته في قصره ولوضع من تحتكم خوازيق تزهق عليها أرواحكم ثم لألقاكم في نار خرائبكم المستعرة التي كنتم تسكنون ! « اه » .

ذلك ما كتب مارا . واني لأعذر للقارئ على قصور عبارتي عن أداء قوة معانية البذبة وعنف حملته الفاحشة . فلقد حاولت نقلها على حقيقتها فلم أوفق إلى غير هذه الصورة العربية الفاترة . ولقد كان فرار الأسرة المالكة والقبض عليهم في فارين وما لاقوه بعد ذلك في باريس من الأذلال والاضطهاد سببا في أن يفكر أخو الملكة الامبراطور ليو بولد الثاني في العمل على تخليص الملك وأسرته ومعارضة الثورة والقائمين بها .

وكانت "حقوق الانسان" ضد المبادئ التي قامت عليها أغلبية حكومات أوروبا الأخرى فكان من صالحها أن تقاوم هذا التيار العنيف . وكان كثير من ملوك أوروبا يتمنون إلى أسرة بوربون

التي منها لويس السادس عشر نفسه فكانوا يرجون الخلاص له هو وأسرته وكان الشوار قد جاروا على حقوق أمراء بعض الولايات التي نتاخم حدودهم فكانوا لهم بالمرصاد . وانتشر المهاجرون من أشراف فرنسا منبئين في أنحاء أوروبا فأثاروا خواطر الناس على رجال الثورة في كل مكان ... كل هذه العوامل كانت باعثا على إصدار (قرار بلنتر) الذي أوهم الفرنسيين أنه لا بد من وجود صلات سرية بين الملك في باريس وملوك أوروبا الآخرين في الخارج . وأن هناك مؤامرة دولية على محاربة الثورة فشددوا النكير على الملك وأسرته وزادوهم إرهاقا — وهذه هي صورة قرار بلنتر^(١) :

”إن صاحبي الجلالة الامبراطور (امبراطور النمسا) وملك بروسيا يصرحان بأن موقف صاحب الجلالة ملك فرنسا الحالي يستدعي اهتمام ملوك أوروبا جميعا وهما لذلك يناشدان بقية الدول إلى معاونتها في تمكين ملك فرنسا من تأسيس حكومة ملكية قوية تتفق مع حقوق الملوك وتحقق سعادة الشعب .

وقد صدرت الأوامر الى جنود صاحبي الدعوة بأن يكونوا على أهبة الاستعداد للعمل“ .

بلنتر في ١٧ أغسطس سنة ١٧٩١ فردريك وليم ليوبولد

الفضل السائس

أعمال الجمعية الوطنية

كانت الجمعية الوطنية خلال هذه العواصف لا تنفك تجتمع وتناقش في مشروع الدستور الذي عنيت بوضعه . والذي كانت نأمر عليه الأيام بمحوادثها فالملك بفراره من جهة . والجمهوريون بمظاهراتهم من جهة أخرى . وملوك أوروبا بمؤامراتهم من جهة ثالثة . ولكن ثبات الجمعية كتب لها الفوز على كل هذه العراقيل . وكان أخوف ما تخشاه الجمعية أن يتولى مناصب الحكم وتنفيذ الدستور من يستبد بالبلاد بعدها فأخذت تحتاط لذلك بعدة وسائل من بينها ان جعلت مدة العضوية في الهيئة التشريعية سنتين يتجدد بعدهما المجلس حتى اذا تغيرت روح البلاد وتطورت أفكارها لم يتخاف عنها المجلس بل بقى مسيرا لها متمشيا مع روحها . ومنها أيضا أنها حرمت أن يتجدد انتخاب أحد الأعضاء مرتين متواليتين حتى لا يكون لأحد متسع من الوقت يكفى لتدبير ما يخشى منه على الدستور وحرمت على أعضاء الجمعية التشريعية أن يدخلوا الوزارة

حتى لا تجتمع في يدهم سلطة التشريع وسلطة التنفيذ عملاً بمبدأ فصل السلطات .

ولكى تضرب للبلاد مثلاً يحتذى في التضحية والتفاني في خدمة الأمة والبعث كل البعد عن الاستئثار بالسلطة قررت أنه لا يجوز أن ينتخب فرد من أفرادها ليكون عضواً في الجمعية التشريعية القادمة .

وليس يخفى عليك ما في هذه القرارات جميعاً من الغلو والاسراف اللذين عكسا على الجمعية الوطنية قصدها وحرمت البلاد من جهود رجالها العاملين وكفاءة نوابها الفطاحل .

وفي أواخر سبتمبر سنة ١٧٩١ انتهت الجمعية من وضع الدستور الذي أخذت على عاتقها وضعه والذي أقسم أعضاؤها في ملعب التنس أنهم سيوالون اجتماعاتهم حتى يفرغوا منه . ولكن علينا أن لا ننسى ما قامت به الجمعية خلال هذه الفترة من الأعمال الجليلة الأخرى التي لا يزال يذكرها لها التاريخ بالاعجاب .

فمن ذلك قرار حقوق الإنسان الذي أوردت لك نصه فيما سلف ثم تلك القرارات التي وضعتها الجمعية في ليلة ٥ أغسطس سنة ١٧٨٩ وفيها ألغيت حقوق الأشراف الوراثية وامتيازاتهم وألقاهم . ثم تقرير حرية الصناعة والتجارة بعد أن كانت محتكرة في يد بعض الأفراد

والطوائف ثم اهتمامها بشأن التعليم ووضعها تقريرا عنه ليكون أساس سياسة الحكومة التعليمية في المستقبل . وكان هذا التقرير يقضى يجعل التعليم العام مجانيا إجباريا وحفا لكل الفرنسيين على اختلاف أعمارهم مع العناية بالتعليم النسوى .

وكان من أهم ماتم على يد الجمعية أنها توجهت الى تنظيم إدارة البلاد الداخلية فعمدت الى الأقسام الادارية القديمة فألغتها ومحت أسمائها وأعادت تقسيمها الى ٨٣ مقاطعة جديدة أطلقت على كل واحدة منها اسم ظاهرة من ظواهرها الطبيعية المشهورة من نهر أو جبل أو غير ذلك مبالغة منها في القضاء على كل قديم وفرارا من تلك الأسماء العتيقة التي كانت رمز التفريق وعنوان الانقسام . فبعد نورمانديا وبريتانيا وغاسقونيا . جاءت مقاطعة المارن والفوج والساون وهكذا .

ولم يكن أقل من ذلك أهمية أقدام الجمعية على اغتصاب أملاك الكنيسة وبيعها . فترعت تلك الأملاك . وقرر أن يتولى الشعب تعيين القسس بنفسه وبذلك انقطعت الصلة التي كانت تربط البابا بالكنيسة الفرنسية ففضبت قداسته لهذا العمل الجرى وأعلن مخطئه على تلك القرارات وظل غاضبا حتى تمت اتفاقية الكنكورد معه سنة ١٨٠١ على يد نابليون الذي جعل المسيحية دين الدولة

الرسمى . ولكى تضمن الجمعية خضوع الكنيسة الفرنسية لهذا النظام المدنى قررت وجوب أن يقسم رجال الدين يمين الاخلاص والطاعة للدستور وإلا حرموا وظائفهم ووقفوا عن العمل .

وأخيرا فى يوم ٣ سبتمبر سنة ١٧٩١ قدم الدستور الى الملك للوافق عليه فأصدره فى ١٤ منه وانحلت الجمعية الوطنية فى ٣٠ سبتمبر وانعقدت الجمعية التشريعية فى اليوم التالى أى فى أول أكتوبر سنة ١٧٩١

البَابُ السَّادِسُ

من أول أكتوبر سنة ١٧٩١ — ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢

الحكومة الدستورية

الفصل الأول

أحزاب الجمعية التشريعية

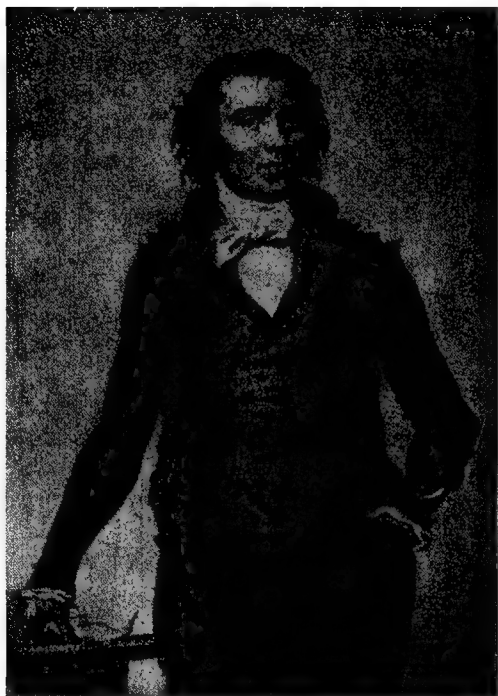
كان النزاع في عهد الجمعية الوطنية نزاعاً دستورياً يدور حول اختصاص الملك وحقوق الجمعية ونحو ذلك . ولكن النزاع الذي وقع في عهد الجمعية التشريعية كان نزاعاً حزبياً يدور حول محاولة كل حزب أن يستأثر بالسلطة ويستبد بالأحزاب الأخرى . وكان في هذه الهيئة الجديدة ثلاثة أحزاب : حزب اليمين ، وحزب الشمال ، وحزب الوسط .

(١) فأما حزب اليمين فهم الدستوريون الذين كانوا يريدون المحافظة على الدستور وكان بين زعمائهم دوماس ولافايت .

وبارناف وبابي . وكان من حظ فرنسا لو انضم الملك الى هؤلاء ولكنه ظل متأثراً بمن حوله وبقي يحلم بالعودة الى سلطته المطلقة متناسياً يمين الولاء التي أقسمها للدستور — وتعرف هذه الجماعة الدستورية بجماعة الفيان (Feuillants)

(٢) وأما حزب الشمال فكان حزب الثورة الذى ما زال يرجو قلب الحكومة والتخلص من نفوذ الملك وإقامة حكومة جمهورية يكون عمادها الشعب نفسه . وكان هذا الحزب ينقسم الى فريقين : (١) اليعاقبة المتطرفين — وكانوا على قلة عددهم فى الجمعية وتجزؤهم من ذوى الكفاءات الممتازة . على شئ لا يستهان به من السطوة وذلك لأنهم كانوا يستندون على ناديهم الرئيسى فى باريس الذى يرأسه روبسبير والذى كان ينتسب اليه الفوغاء والعامّة فى باريس نفسها وفى جميع أنحاء فرنسا .

(ب) وفريق الجيرندين المعتدلين — (نسبة الى مقاطعة الجيرند التى ينتمى اليها زعمائهم) وكانوا ذوى العدد الأوفى فى البرلمان والكفاءات الممتازة فى الخطابة وكان من زعمائهم المفكرين بريسو (Brissot) ومن أشهر خطبائهم ثرينو (Vergniaud) وإستار (Isnard) ولكن روحهم المحركة كانت مدام رولان — ولقد كانت الغلبة لهم فى بادئ الأمر



فوزي—و

على بقية الأحزاب ولكنهم عجزوا عن إدارة البلاد والاستقلال بحكمها . وما لبثوا أن تضاءلوا أمام نفوذ اليعاقبة المتراير واتساع ناديم وانتشار فروعه فى كل مكان .

(٣) وأما حزب الوسط فكان يتألف من جماعة زعمت أنها مستقلة حرصا منها على أن لا تنمى لحزب معين فتنبك معه حين ينبك فى ذلك الزمن القلب الذى لم يكن يستقر فيه شىء على حال .

الفصل الثاني

إعلان الحرب

قضت الجمعية التشريعية شهورها الأولى في الاشتغال بوسائل الدفاع التي يجب أن تتخذها ضد أعداء الثورة الثلاثة وهم :

(١) أشرفها المهاجرون الذين كانوا يعملون على غزوها من الخارج .

(٢) وملوك أوروبا الذين كانوا بهتدونها بمثل تصريح بلنتر .

(٣) والأكليروس الذين ما زالوا حانقين على الثورة منذ نزع من أيديهم أملاك الكنيسة فكانوا منتشرين في داخل البلاد يحاولون نشر الفتنة فيها وتشويه سمعة القائمين بالثورة في باريس .

وكان الملك فضلا عن كل هؤلاء موضع الريبة والشك عند رجال الجمعية بصفة خاصة وعند أهل فرنسا جميعا بصفة عامة وقد تأيدت هذه الريب والشكوك فيما بعد بما ضبط من الرسائل السرية التي كانت تبعث بها الملكة هي وزوجها الى أوروبا يستنجدانهم

فيها على الثورة ويحضانهم بها على غزو فرنسا وتخليصها من أيدي
الناشرين . وإليك نص واحد من هذه الخطابات على سبيل المثال :

باريس في ٣ ديسمبر سنة ١٧٩١

أخى (ملك بروسيا)

علمت من الموسيو موستيه بما أبدته جلاتكم من الاهتمام
لا بشخصي وحده ولكن بصالح فرنسا كذلك . ولقد كان هذا
الاهتمام موضع تقديرى العظيم وأنى لأرجو أن أنتفع به في هذا
الوقت الذى يعمل فيه بعض الزعماء على تحطيم بقايا النظام الملكى
في فرنسا على الرغم من أنى قبلت الدستور الجديد . ولقد خاطبت
الأمبراطور وملكة روسيا وملكى اسبانيا والسويد واقترحت عليهم
عقد مؤتمر من ملوك أوروبا يستند الى قوة مسلحة لا يقاف الأحزاب
المشاغبة في فرنسا عند حدها . ولإعادة النظام فيها . وانى واثق
من موافقة جلاتكم على هذا الرأى وانكم ستحفظون بتمام سرية
هذا الاقتراح الذى أعرضه عليكم فان الظروف التى تحيط بى
تستلزم منى غاية الحذر والتكتم .

أخوك الطيب

(١)
لويس

وكان أول ما واجه الجمعية من الواجبات أن تعمل على دفع تلك الأخطار عن البلاد كما أسلفت لك في أول الفصل . فانبرى (إسنار) خطيب الجيرنديين يحض الجمعية على وجوب اتخاذ الاجراءات المشددة للتغلب على مايعترض سبيل الثورة من الصعاب . واقتراح أن تكتب الجمعية الى كونت بروفانس المقيم بألمانيا تطلب عودته الى فرنسا وإلا سقط حقه في المطالبة بعرشها . فاتفقت كلمة الجمعية على أن ترسل له الخطاب الآتي :

١٣١ أكتوبر سنة ١٧٩١

” إلى اويس ستانيسلاس زافيه — أمير فرنسا .

الجمعية الأهلية تدعوكم بحكم المادة ٢ من القسم ٣ من الفصل الثاني من الباب الثالث من الدستور الفرنسي أن تعودوا إلى المملكة في ظرف شهرين من تاريخه . وإلا فانكم بعد انقضاء المدة المذكورة تخسرون كل ما يمكن أن ينشأ لكم من الحقوق في وراثه العرش“ .

+ + +

فنشر الكونت صورة هذا الكتاب في ٦ ديسمبر في مدينة كوبلنتز وهي مقر المهاجرين من أشراف فرنسا وشفعه برده الآتي :

” إلى أعضاء الجمعية الفرنسية التي تسمى نفسها الأهلية :

العقل السليم يدعوكم بحكم المادة ١ من القسم ١ من الفصل الأول من الباب الأول من قانون الذوق السليم الغير المسطور أن .

تشبوا إلى رشدكم في ظرف شهرين من تاريخه وإلا فانكم بعد انقضاء
المدة المذكورة تخسرون حقكم في أن تكونوا من ضمن الكائنات
المعقولة وتعتبرون من المجانين الذين توفرت فيهم اللياقة لمستشفى
المجاذيب^(١) !

وعادت الجمعية بتأثير الجيرنديين فقررت (في ٩ نوفمبر) مصادرة
أملك المهاجرين والحكم عليهم بالأعدام إلا اذا عادوا الى وطنهم
مخلصين قبل آخر السنة . ثم قررت (في ٢٩ نوفمبر أيضا) أن يتقدم
رجال الدين لحلف يمين الطاعة للنظام الجديد في ظرف ثمانية أيام
ويكون عقاب من يمتنع عن أداء هذه اليمين أن يخسر وظيفته .
فاذا وقع أدنى هياج في بلدة واحد منهم فيكون جرائه النفي فاذا ثبت
اشتراكه في التهييج فجزاؤه السجن عامين .

ورأى الملك أن يقف في وجه هذين القرارين بما له من حق
القيتو فاعترض الجيرنديون عليه بأن هذين القرارين ليسا من القوانين
التي يسمح فيها باستعمال القيتو ولكنها من القرارات الاستثنائية
التي يلتجأ اليها في ساعة الخطر لسلامة البلاد .

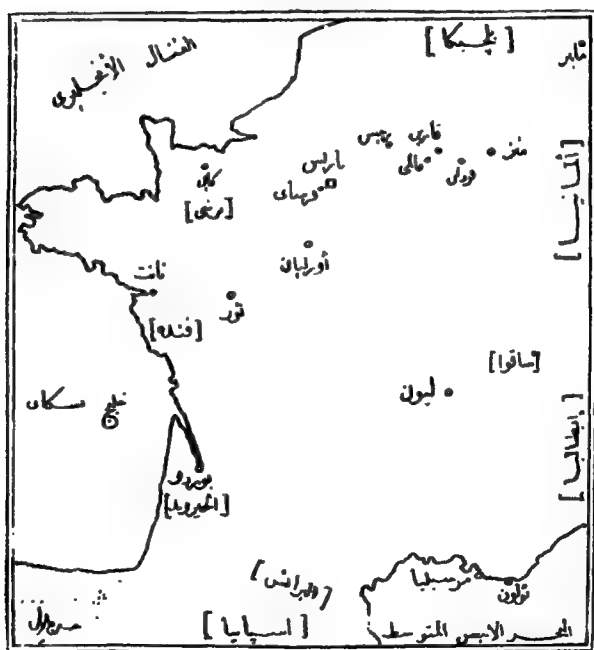
ثم استوردوا من ذلك الى احراج الملك وكشف حقيقته بأن
طلبوا اليه أن يعلن الحرب على النمسا . واجتمعت كلمة الأحزاب

كلها إلا العاقبة على تأييد هذا الطلب . فكان أنصار الملكية يرجون أن يكون النصر لفرنسا . ويكون من وراء ذلك أن يتقوى مركز الملك وتخف حدة المتطرفين بينما كان الجيرنديون يرغبون في الحرب كوسيلة تخوّلهم الاستئثار بالسلطة والظهور بمظهر المسير لسياسة البلاد . أما العاقبة فكانوا يقاومون هذا الرأي تحزبا منهم على الجيرنديين من جهة ولأنهم من جهة أخرى كانوا يخشون الدخول في حرب يكونون أول ضحاياها أن انتهت بالهزيمة ويكون الملك أول من يستفيد منها إن انتهت بالنصر .

ولكن نجح الجيرنديون في حمل الملك على أن يكتب الى الأمبراطور (١٤ ديسمبر سنة ١٧٩١) مذكرة يطلب إليه فيها أن يأمر بتسريح فرق الأشراف المسلحة التي وقفت على الحدود وأنذر باعلان الحرب اذا رفض هذا الطلب . وبعد مفاوضات ومكاتبات كثيرة أرسلت النمسا تقول أن رجال الثورة استولوا على افيزيون وهي من ولايات البابا وقرروا إلغاء بعض الحقوق الاقطاعية في الازراس وهي تابعة لبعض أمراء ألمانيا وان هذه الأعمال من شأنها أن تهدد السلام في أوروبا . فكان هذا الرد مبرا كافيا لاعلان الحرب

التي كان يريد بها الفريقان وهما يتعلان بهذه العلل السخيفة ويستتران تحت هذه الحجب المهتوكة . وفي العشرين من شهر أبريل دخل لويس السادس عشر قاعة الجمعية . وقرأ بصوت متهدج إعلان الحرب الذي أرسلته فرنسا الى "ملك هنغاريا وبوهيميا" .

وہنا



الفصل الثالث

بدء الحرب — ومظاهرة ٢٠ يونيه

فوجئت أوروبا بهذا الاعلان . فان روسيا كانت مشغلة ببولندا ومحاولة الاستيلاء عليها وكانت اسبانيا متقلبة الرأى لم تعول على شىء أما انجلترا فكانت على الحياد . وكانت بروسيا تود أن تسترك في الحرب ولكن كان لا بد لها من الوقت الطويل لتعبئة جيوشها . فوقت النمسا وحدها أمام فرنسا . ولكن لم يكن لفرنسا من الجيوش النظامية ما يمكنها من الاستفادة من هذا الطرف الحسن . وكان كل اعتمادها على المتطوعين الذين لم يسبق لهم مراس بالحرب ولم تكن لهم دراية فيها . وكانت كل ميزتهم أنهم ممثلون حماسية فأسرعوا في الزحف على بلجيكا وكانت تابعة للنمسا ولكن ما هو إلا أن أشرفت عليهم طلائع الجيوش النمساوية بقضها وقضيضها ونظامها الباهر ومنظرها الفخم حتى ألقت الرعب في قلوبهم وزاعت لها أبصارهم وارتد المتقدمون منهم على أعقابهم ففرز أمامهم المتأخرون وهم يصيحون وينادون : ” خيانة ! خيانة ! “ وهكذا وقع اللقاء الأول بين الثورة وأوروبا ! ومن حسن حظ فرنسا أن أعداءها

لم يتعقبوها في تلك الساعة وإلا لفضوا عليها القضاء الأخير .
ولكنهم هبوا لها الفرصة حتى نظمت صفوفها من جديد ولم يبدأوا
بالزحف عليها إلا في ١٩ أغسطس سنة ١٧٩١

وبلغت باريس أنباء هذا الارتداد الشنيع واضطربت المدينة
وهاجت له جموعها . وقام الناس الى سلاحهم وعمرت القلوب بالشك
والريبة وساد على الأذهان جو من الاتهام والظنون . وأعلنت
الجمعية أنها ستداوم انعقادها ليل نهار وقررت أن ينشأ في باريس
نفسها معسكر من ٢٠ ألف متطوع لحمايتها كما قررت نفى كثير من
القسس لمجرد اتهامهم بأنهم يعملون على إفلاق خواطر الناس .
فاعترض الملك مرة أخرى على هذين القرارين . وزاد على ذلك
بأن أسقط الوزارة التي كانت تتألف من الجيرنديين (١١ يونيه)
وأقام من بعدها وزارة أخرى من الأحزاب المؤتلفة ولكن الجرنديين
أبوا أن يتخلوا عن الحكم بهذه السهولة فدبروا مظاهرة في العشرين
من شهر يونيه باسم الاحتفال بذكرى القسم التاريخي وكان الغرض
منها إرهاب الملك وحمله على العودة اليهم والاستعانة بهم وسارت
المظاهرة حتى بلغت دار الجمعية وهناك تعالى هتافها ” بتحي الأمة “
” ويحي السانكلوت “ (لقب كان يطلق على الجرنديين) ” ولسقط
القيتو “ ومن ثم سارت إلى قصر التويلرى فأمر الملك أن تفتح لها

الأبواب فاندفع المتظاهرون الى داخل القصر وأسرعوا الى غرفه وأعملوا فيها بلطهم فامرّ بأبوابها أن تفتح كذلك وظهر لهم بشخصه فوقف أمامه المتظاهرون واستوى هو على كرسي فوق مائدة عالية ليراه الناس وليكون أدنى الى استنشاق الهواء النقي وسط هذه الجموع . ولما اكتمل حوله عقد المتظاهرين أخذوا يصيحون في طلب الموافقة على قرارات الجمعية فأجابهم بأن الطلب لا يصح أن يقدم في مثل هذا الوقت ولا بمثل هذه الطريقة . وكان لما أبداه من الثبات والرزانة والشجاعة الحقّة في هذا الموقف أبلغ أثر في السيطرة على هذه الجموع النائرة . بل لقد نجح الملك في أن يكون موضع إعجاب الشعب وهتافه العالي حينما تقدّم إليه أحد المتظاهرين بقلنسوته الحمراء (شعار الثورة) وهو يرفعها على سنان رمحہ فتناولها منه الملك ووضعها على رأسه . ثم أنه بالغ في ملاينة الثوار الى حدّ أن مديده الى كأس من النبيذ حملها إليه عامل ثمل ليشرب نخب الأمة فتناولها منه ورفعها إلى شفّتيه من غير تردد وهكذا انطلقت حدة المتظاهرين وعادوا أدراجهم^(١) . وأثبت الملك مرة أخرى أنه كان أبعد ضحايا الثورة عن التسبب في وقوع الثورة وأنه لم تكن تزل قدمه غالبا إلا حين تتولى تسييره الملكة أو رجال البلاط !

على أن هذا الحادث أفرع كثيرا من المعتدلين أمثال لافايت .
فأشاروا على الملك بوجوب التخلص من زعماء اليعاقبة الذين يشيرون
العامّة ويحرضونهم على العصيان ولكن الملكة لم تكن لتقبل شيئا من
لافايت لكرهها له منذ تولى رئاسة الحرس الوطنى وقالت إنها
تفضل الموت على أن تتجو على يد لافايت .

وهكذا أضاعت بتعصبها الأحمق العنيد آخر فرصة بقيت أمام
الحزب الملكى ليضع يده فى يد طائفة من المعتدلين يستعين بهم على
الثبات ثم على استعادة شيء من نفوذه الضائع .

الفصل الرابع

الملك في السجن

لعلك لم تنس بعد أن فرنسا في حرب مع أوروبا وأن جيوشها ارتدت ذلك الارتداد المخزى الذى وصفناه لك فى الفصل السابق . ولقد كان كل أمل الملكة قائماً على نجاح هذه الغزوة الأجنبية التى سيرها أخوها على فرنسا . وكانت كل الظروف تدعو الشعب الى التشكك فى اخلاص الملك وصدق ولائه . ولم يلبث هذا الاتهام المضمّر أن ظهر على لسان (فرينو) أحد مشاهير خطباء الجيرندين فى الجمعية فوقف فى اليوم الثالث من شهر يولييه سنة ١٧٩٢ وألقى خطبة رنانة شديدة اللهجة اتهم فيها الملك بأنه متواطئ مع أعداء الوطن وأشار الى أن الدستور يعتبره متازلاً عن العرش اذا هو تواطأ مع دولة أجنبية على غزو البلاد أو لم يمنعها من ذلك . وكان لهذه الخطبة أثرها فان الجمعية أعلنت فى ١١ يولييه سنة ١٧٩٢ اعلانها الرهيب :

”أيها المواطنون : إن الوطن فى خطر !“

فهرع المتطوعون من كل فج لدفع هذا الخطر . وكان مقررا أن تسير الفرق في طريقها الى ميدان القتال من وسط باريس . فوجد عليها أهل مرسيليا وهم ينشدون النشيد المشهور الذي وضعه (روجيه دى ليل) والذي أخذه عنهم بقية المتطوعين فأصبح نشيد فرنسا كلها وعرف منذ ذلك الوقت باسم (المرسييز) .

وفي ١٤ يولييه ازداد اقبال الناس من الأقاليم على باريس للاحتفال بعيد الحرية الثالث . وتجلت في الحفلات التي أقيمت بمناسبة هذا العيد روح العداء الدفين الذي كان يضمه الناس للأسرة المالكة وأبى الحظ العاثر إلا أن يقوم دوق برزويك (قائد قوات الجيوش الأجنبية التي كانت تسير لغزو فرنسا) فيشرف في هذا الظرف الدقيق تصريحه المشهور (٢٧ يولييه سنة ١٧٩٢) الذي دعا فيه أهل فرنسا للعودة الى السكينة والهدوء وأنذر أهل باريس بالويلات اذا هم متوا أيديهم بأذى الى الأسرة المالكة واليك بعض ماجاء بهذا الصدد في ذلك التصريح المشهور :

» »

ثامنا — يجب على باريس والباريسيين جميعا أن يخضعوا فوراً لأوامر ملكهم من غير تأخير وأن يعيدوا اليه حريته كاملة

مستوفاة . وأن يضمّنوا له هو وأفراد أسرته تلك الحصانة وذلك الاحترام اللذين توجههما القوانين الطبيعية في حق الملوك .

وأن أمبراطور النمسا وملك بروسيا ليقسمان بشرفهما أنه اذا تطاولت يد الشعب الى قصر التويلرى أو أصاب أفراد الأسرة المالكة أى أذى أو تباطأ الشعب في ردّ حريتهم اليهم جميعا . لا بد أن يوقعا بباريس انتقاما خالدا ويسلماها الى الخراب الدائم والدمار المقيم . كما أنهما يوقعان بالعصاة المجرمين ما يستحقونه من العذاب“ !

ووصل هذا التصريح الناري مدينة باريس في اليوم التالى (٢٨ يولييه) والى تهور صاحبه وتفانيه في خلاص الملك يرجع الفضل الأول في سقوط الملك واقتضاء عهد الملكية في فرنسا ! ! ولم يبق بعده رجل واحد في كل فرنسا يستطيع أن يجهر بأنه يعطف على الملك دون أن يتهم بالخيانة العظمى للبلاد ! وهكذا أراد الدب الأحمر أن يذود الذباب عن وجه سيده فرماه بالحجر وأرداه قتيلًا ! ! وأجمعت الأحزاب على وجوب التخلص من الملك . ولم يقع خلاف بينهم إلا على الوسيلة . فكان الجيرنديون يريدون وقفه بقرار تصدره الجمعية . أما اليعاقبة فكانوا يريدون أن يسيروا عليه جموعهم ليختطفوه من قصره ثم يلقوا به الى الجحيم ! وغلب صوتهم في هذا

الشأن على صوت نظرائهم وتقهر الجيرنديون أمام حماسهم الدافقة وسخطهم الجارف . وحدد العاقبة ليلة ١٠ أغسطس للهجوم على التويلرى والمطالبة بعزل الملك . وأخذ الشعب يستعد لتلك الساعة الرهيبة التي أراد أن يجعلها فصل الخطاب بينه وبين (ملكه الخائن) ! كما كان يسميه .

وأخيرا حان الموعد في منتصف تلك الليلة وأعطيت الإشارة . فسلس العصاة الى الساحة التي اتفقوا على أن يجتمعوا فيها . ثم توجه كل جماعة الى وجهتهم التي رسموها لأنفسهم وجرى هذا التوزيع بغاية الدقة والاحكام . وكان أول ما صنع زعمائهم أن قرروا حل مجلس باريس البلدى . وتأليف مجلس وقى آخر تولى رياسته دانتون .

هذا ما كان من أمر العصاة ! أما في القصر فكان كل واحد يدرك خطر الموقف ويعرف تماما أن الساعة قد دنت وأن كثرة الثوار وإحكام تدبيرهم سيكفل لهم الفوز ويرجح بكفتهم على كفة الحرس .

وفي الساعة الرابعة صباحا وقفت الملكة بين أعوانها تسألهم : "ما العمل ؟" فقال قائل منهم : "لا شيء إلا أن تذهب الأسرة المالكة الى قاعة الجمعية !"

فأجابه صاحب له : ” اذن أنت تقترح أن ينهب الملك الى أعدائه ؟ “ .

ولكن الملكة صاحت به قائلة : ” بل أن لدينا جيوشا هنا يا سيدي . ولقد حان الوقت أخيرا لنعرف من تكون له الغلبة . أملك والدستور أم الأحزاب ! “ .

فلم يسع ذلك الناصح الرشيد إلا أن يقول : ” اذن لنذهب يا مولاتي حتى نرى ما ذا أعد من وسائل الدفاع ! “ .

واستعرض الملك قوة القصر في الخامسة صباحا فلاقاه جنوده ، بقولهم : ” فليحي الملك ! “ فأجاب الدعوة من خارج القصر صوت كقصف الرعد يقول : ” فلتحي الأمة ! “ وأتم الملك عرض جنوده بين صيحات الكئاب الخارجية بسقوط الخائن ! وسقوط القيتو ! ونحو ذلك حتى أنه حين عاد تلقته الملكة نفسها بقولها : ” لقد ضاع كل أمل ! وأرى أن ضرر هذا العرض كان أكبر من نفعه ! “ .

ولم يعد من أمل أمام الملك إلا أن ينسحب هو وأسرته من القصر الى قاعة الجمعية (وكانت تقابل القصر في الجهة الأخرى من الحديقة) ففعلوا وخلفوا وراءهم فرقة الحرس السويسرى التى بقيت تدافع عن القصر ولا علم لها بانسحاب الملك منه وكانت المعركة

حامية الوطيس . ولكن كثرة المهاجمين غلبت فنون الحرس الحربية واستمرت المذبحة لغاية الساعة الحادية عشرة صباحا حتى لم يكديبق من رجال الحرس من يقف للدفاع . وبعد ذلك أخذ الناس ينسابون الى قاعة الاجتماع وهم يحملون رؤوس قتلاهم على أسنة الحراب .

هنالك ألح التوار في طلب خلع الملك ولكن نجح الجيرنديون في اقناع الجمعية بأن ذلك الطلب لا يتفق مع القانون لأنه يهدم نظام الحكومة الحاضر دون أن يمهد لانشاء نظام آخر فقرر الاكتفاء بوقف الملك وحالة تقرير مصيره على مؤتمر وطني عام يدعى خصيصا لهذا الغرض .

ثم نقل الملك هو وأسرته من دار الجمعية الى قصر اللوكسمبرج وكانت المناقشات الحادة تستخدم في الجمعية حول اختيار مكان ملائم تسجن فيه الأسرة المالكة . فوقع اختيارها في النهاية على (التامبل) وهو حصن عتيق منع نقل الملك وأسرته الى أحد أبراجه حيث وضعوا تحت الحراسة الشديدة فحرمت عليهم المكاتبه وقراءة الصحف . وكان الملك يقضى في هذا السجن أيامه نائما أو مشغلا بالتدريس لأبنائه بينما كانت تفضى الملكة وقتها في التطريز !

الفصل الخامس

مذابج سبتمبر — سقوط الملكية

انتقلت السلطة بعد حل بلديه باريس الى يد البلدية الجديدة (الكومون) التي كان يرأسها دانتون ولم يبق من عمل للجمعية التشريعية إلا الموافقة على ما يمليه عليها هذا (الكومون) فسجن الملك بأمره . واتخذت العدة لجمع المؤتمر الوطني كذلك بأمره . وتشكلت وزارة جديدة من الجيرندين ولكن دانتون كان وزير حقانيته . وتألفت بعد ذلك محكمة ثورية لمحاكمة أعداء الشعب وكانت قرارات هذه المحكمة نهائية غير قابلة للطعن . وصدرت الأوامر لبلديات الأقاليم بالقاء القبض على كل من حامت الشكوك حول إخلاصه ولو لم يتوفر الدليل على خيانتة ليحاكم أمام هذه المحكمة .

جرت كل هذه التغيرات وتطورت الحالة الى ما صارت عليه تحت تأثير تلك الهزيمة الأولى التي ارتدت فيها الجيوش الفرنسية في بدء الحرب ولكن فرنسا عادت كما أسلفنا فنظمت صفوفها وتولى قيادة جيوشها لافاييت ولوكنر (Luckner) واستأنف الجيش سيره للقاء العدو . على أن حادثا جده بعد ذلك فدعا الى تغيير

القيادة وأفسح المجال من جديد أمام الفاتحين وذلك أن لافايت لم يرض عن حوادث ١٠ أغسطس وقرر أن يسير بجنوده على باريس لحماية الملك . فلم يخضع الجنود لرأيه . وخالفه زملاؤه القواد قائلين إن مهمتهم مطاردة العدو لا مطاردة مواطنهم . وصدر قرار الجمعية باعتبار لافايت خائناً للبلاد . فلم ير الرجل أمامه غير التخلي عن القيادة والفرار من يد الثوار فولى وجهه شطر هولندا . ولكنه وقع في أيدي النمساوين فسجنوه ولم يخلوا سبيله إلا في عهد نابليون بونابرت .

وفي خلال ذلك تقدم دوق برزويك فاستولى على لونجوى في ٢٣ أغسطس وعلى متر في ٢٧ منه ثم زحف على فردان وهي آخر حصن بينه وبين باريس التي تهددها بالخراب في تصريحه المشهور فطارت لهذه الهزائم نقوس الفرنسيين وأرادت الجمعية أن تتولى بنفسها تنظيم الدفاع عن البلاد . واقترحت حل الكومون . غير أن هذا لم يكتف بالمعارضة في أمر الحل بل تقدم بنفسه ليتولى هو أمر الدفاع . فأعلن دانتون نفسه ديكتاتورا على باريس وصرح بأن خطته السياسية ستكون إرهاب الملكيين . فأغلقت أبواب المدينة في مساء ٢٩ أغسطس وقام مندوبو الكومون بتفتيش منازل كل من يشتبه في أن لهم أدنى صلة بالحزب الملكي بحجة البحث

عن السلاح وبذلك ألقى القبض على نحو أربعة آلاف ما بين قسس وأشراف وفرسان وطرحوا جميعا في غيابات السجون . فلما وافت الأبناء بسقوط فردان في ٢ سبتمبر طافت بهذه السجون في ليلة الثالث من شهر سبتمبر وفود الجلادين وداوموا عملهم الجهنمي لمدة ثلاثة أيام كاملة أفنوا في خلالها نحو ألف نفس . وكان من بين القتلى الأميرة لاهبال صديقة الملكة وكاتمة سرها وقد حمل رأسها بعد ذلك على حربة عالية وسار به حامله الى نوافذ سجن التامبل حيث كانت الأسرة المالكة تقضى أيامها السود الباقية في انتظار مصيرها المشئوم !

وكتب الكومون الى البلاد الكبيرة يدعوها الى الجرى على مثاله "حتى لا يتجه الفرنسي المخلص الى العدو ويخلف من ورائه أنذالا يقتلون نساءه وأولاده" فقامت المذابح في فرساي وريمس بوليون وأورليان . وهذه هي المذابح المشهورة في تاريخ الثورة باسم "مذابح سبتمبر". وقد قتل فيها خلق كثيرون ممن اتهموا بمشايعتهم للملكية حتى لا يكونوا عوناً لدوق برنزويك وهو يقترب من باريس . فانظر كيف كانت عاقبة سعى أوروبا في حفظ السلام في فرنسا !

ولم ير الفرنسيون بعد فردان إلا أن يستميتوا في دفع ما يتهتد بهم من الهزيمة وعار الغلبة وذل العبودية فثبت ديمورييه القائد الجيرندى



فرنس لامبال

تحت مدافع البروسيين في (فاللى) — ٢٠ سبتمبر — ثباتا أدهش العدو وعكس آماله وأفسد عليه خططه وحمله على الرجوع — فأما بروسيا فإن ملكها آثر أن ينفصل عن حلفائه النمساويين ليعود الى بلاده ويراقب حوادث بولنده أملا في اقتسام تلك المملكة الضعيفة مع قيصر روسيا وفعلا حدث التقسيم الثانى لبولنده سنة ١٧٩١ وبه نالت كل من روسيا وبروسيا جزءا من أرض بولنده ولم تمض أربع سنين حتى اقتسمت النمسا والروسيا وبروسيا البقية الباقية من بولنده ومحوها من خريطة أوروبا ولم تعد للظهور إلا بعد الحرب العظمى . وأما جيش النمسا فكانت تعوزه المؤنة فضلا عن نفشى لمرض فيه فلم يستطيع التقدم بل آثر الانسحاب الى الشرق .

ولقد كان (جوته) الشاعر الألمانى الكبير حاضرا فى موقعة ثالى فقال لأصدقائه : ” فى هذا اليوم . وفى هذا المكان ولد عصر جديد فى تاريخ العالم ! “ وما كان أصدق نبوته ! فى ٢١ سبتمبر أى فى اليوم التالى ليوم فاللى انعقد المؤتمر الوطنى وأعلن أن فرنسا قد انتهى بها عهد الملكية . وأنها انتقلت من مملكة أوتوقراطية الى جمهورية ديمقراطية . .



ديمورييه

الباب السابع

الجمهورية

٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢ — ٢٧ أكتوبر سنة ١٧٩٥

الفصل الأول

المؤتمر الوطني

أريد قبل أن أحدثك عن المؤتمر الوطني أن أذكرك بأن الجمعية الوطنية الأولى كانت تسمى بالجمعية المؤسسة لأنها أخذت على عاتقها وضع دستور للبلاد . فلما وضعته وانتهى عملها انحلت . وتولت الجمعية التشريعية حكم البلاد بمعاونة الملك و بقيت هذه الحكومة من أكتوبر سنة ١٧٩١ الى سبتمبر سنة ١٧٩٢ حيث سجن الملك وأعلن انقضاء عهد الملكية في فرنسا ودعى المؤتمر الوطني ليرسم للبلاد نظام حكومة جديدة . فهو من هذه الوجهة يشبه الجمعية المؤسسة الأولى غير أن واجبه كان أوسع من واجبها اذ لم يكن الغرض من

اجتماعه مقصورا على وضع هذا النظام فحسب بل كان يشمل أيضا القيام بمهمة الحكم ريثما يفرغ من انشاء الحكومة الجديدة ووضع نظاماتها . فكان المؤتمر فى الحقيقة نائبا عن الشعب فى كافة مظاهر سلطته الشرعية فى الوقت الذى خلت فيه البلاد من الحكومة ليتولى حكمها فى الداخل ودفع غارة الأعداء عنها فى الخارج وليقرر شكل حكومتها النهائية بعد أن انقضى عهد الملكية فيها^(١) .

وجرت الانتخابات لهذا المؤتمر فى وقت عصيب كانت نار الحرب مشتعلة فيه بين فرنسا والدول المتحالفة . والملك وأسرتة رهائن فى (التامبل) وأنصار الملكية ينكل بهم فى كل مكان . ولجان الثورة والأندية اليعقوبة متسلطة على الأذهان بجاء هيئة ديمقراطية ثورية للغاية القصوى يكاد تطرفها يمنع بها الى الفوضى وكان أعضاؤه وهم يزيدون على السبعائة لا يكاد يرى بينهم عضو واحد قد انصرفت ميوله الى الحزب الملكى أو حزب الدستور .

فكان الجيرنديون هم حزب اليمين هذه المرة وكان كل همهم التغلب على الكومون واسترداد السيادة من يده — وكان الحزب المتطرف هو حزب اليعاقبة الذين نصبت مقاعدهم فوق المقاعد السفلى وأطلق عليهم لذلك اسم (الجيل) . أما الحزب الثالث فكان

(١) الجمعيات الوطنية (الرامى) .

ضعيفا لا رأى له إلا ما يحمله عليه الجيرنديون بقوة حجتهم أو ما يدفعهم اليه اليعاقبة بارهابهم . وكان يطلق على هذا الحزب نظرا لوقوعه تحت (الجل) اسم (السهل) .

وبلغت المنافسة بين الحزبين الرئيسيين في هيئة المؤتمر أشدها فكان كل فريق يهتم بالاستئثار بالسلطة واحقاد أنفاس مناظره اهتمامه بالتغلب على عدوه الخارجى . وكان فى هذا المؤتمر من زعماء الجيرنديين فرنيو وبريسو اللذين اشتهرا فى عهد الجمعية التشريعية . كما كان بين زعماء اليعاقبة هذه المرة روبسبير الذى أصبح فيما بعد دكتاتور فرنسا وزعيم الارهاب . ومارا الطبيب صاحب جريدة (صديق الشعب) وأشد دعاة الثورة حماسا . وألد أعداء الجيرنديين . وأكبر زعماء الارهاب قسوة ونظرفا . ودانتون المحامى الذى كان وزيرا للثقافية فى الوزارة الأخيرة ورئيسا لبلدية باريس . وكامى ديمولان الصحفى والخطيب الشهير وصديق دانتون الحميم الذى اتهمه روبسبير فى أيام ركثاوريته بأنه يعمل مع دانتون على التآمر ضد الجمهورية وساقهما معا الى الجيلوتين . وغير هؤلاء كثير يضيق المقام عن ذكرهم أجمعين .

ولم يكد يجتمع المؤتمر حتى أخذ فى تأليف اللجان العديدة للقيام بما كان مطلوبا منه من الواجبات الكثيرة فاختصت لجنة بالتشريع

ولجنة بالمالية ولجنة بالشئون الحربية ولجنة بالشئون الخارجية وغيرها بوضع الدستور وهكذا .

وكان أول اجتماع عقده المؤتمر فى ٢٠ سبتمبر حيث اجتمع فى سراى التويلرى وفى ٢١ أعلن انتهاء عهد الملكية وافتتاح عهد الجمهورية . ثم أبطل استعمال لقب (مسيو) (ومدام) وسائر الألقاب التى تستعمل فى مقام الاحترام واستبدلت جميعها بلفظ (مواطن) للذكور (ومواطنة) للإناث وأطلق على دوق أورليان نفسه زعيم المبشرين بمبادئ الثورة من حرية وأخاء ومساواة لقب (المواطن مساواة) وسبب هذا الانفعال الشديد أن القوم ما كادوا يذوقون طعم الحرية التى حرّموا منها أجيالا طويلة حتى ثارت عواطفهم لدرجة تقرب من الجنون وأخذتهم هذه النبوة العنيفة ضد كل أثر من آثار العهد القديم حتى أصبحوا ينظرون الى كل من ينتمى الى النبلاء كأنه جرثومة شروفساد لا تصلح حال الأمة ويستقيم شأنها إلا بعد إبادتها والتخلص منها . وكان من جراء ذلك ما وقع من المذابح الشهيرة التى انتهت بعهد الارهاب .

على أن الناس فى بادئ الأمر كانوا يستنكرون الاسراف فى القتل وسفك الدماء . وأدّى ذلك الى رجحان كفة الجيرنديين فى أول عهد المؤتمر على الجبليين المتطرفين . حتى أن بعض

الجيرنديين وجه التهمة الى روبسبير ومارا بأنهما أصل الفظائع التي كانت ترتكب في أنحاء فرنسا عقب وقوع مذابح سبتمبر في باريس تمهيدا لارهاب الناس وحملهم على قبول سيطرتهم واستئثارهم بالسلطة في ادارة شئون البلاد . ولكن الجمعية لم ترمن الأدلة ما يكفي لادانتهم فلم تعمل على محاكمتهم وأسرها روبسبير في نفسه لخصومه وكان هذا الحادث من أكبر العوامل التي جعلته يلعب ذلك الدور الهائل الذي مثله في عهد الارهاب .

الفصل الثنائي

الحرب مستمرة

لم تكن الحرب قد قرت رحاها بعد ارتداد البروسيين عن قالمى
فى ٢٠ سبتمبر فان جيوش الثورة أخذت تطارد أعداءها . فأوغل
(كاستين) فى ألمانيا واستولى على مدينة مايتز (٢١ أكتوبر)
وتقدم ديموين نحو البلجيك وقاتل النمساويين فى (جياپ)
(٦ نوفمبر) وأوقع فى صفوفهم الهزيمة فأخلوا له الجحوم بعدها من
غير قتال وكانت الجيوش الفرنسية تعلن فى كل مكان تحل به أنها
لا تبغى الاعتداء على حرية الشعوب ولكنها تعمل على نشر مبادئ
الثورة وأصدر المؤتمر فى ١٩ نوفمبر قراره الشهير :

[أنه يعلن باسم الأمة الفرنسية استعدادده لمعاونة كل شعب
يمجاهد فى سبيل حريته . ويكلف قواد الجيش الفرنسى بأن يمدوا
يد المساعدة لكل أمة تضطهد بسبب هذا الجهاد] .

فطلب البلجيكيون أن ينضموا الى الجمهورية الفرنسية وقبل
المؤتمر هذا الطلب كما قبل طلب انضمام ساقوا كذلك بناء على رغبة
أهلها .

وهكذا كتب النصر لفرنسا في الخارج بينما هي يمزقها الانقسام
والمنازعات الحزبية في الداخل فان الجيرنديين ما انفكوا يدبرون كل
وسيلة لاستعادة السلطة بعد أن اترعها منهم رجال ١٠ أغسطس
وأودعوها في يد (كومون باريس) ولمثل ذلك كان يعمل العاملون
من الجبليين فانهم ودوا لو يقضون على الجيرنديين حتى يتم لهم الأمر
ويتخلصوا من منافسة ذلك الحزب القدير الخطر . فأناروا مشكلة
الملك السجين ونادوا بوجوب محاكمته أملا منهم في أن يعترض
الجيرنديون فيكون ذلك سببا في إثارة الرأي العام عليهم فاذا هم
وافقوا على المحاكمة فلا مناص من أنهم يعارضون في الحكم عليه
بالاعدام وعند ذلك توجه اليهم تهمة التواطؤ والخيانة ولا مفتر لهم
من الخسارة على كل حال .

الفصل الثالث

إعدام الملك

كان الملك منذ وصل التاميل منقطعا عن العالم الخارجى فلم يكن يسمح له أن يكتب أحدا ولم يكن يسمح له بقراءة الصحف كما أسلفنا . وكذلك كانت الملكة . وقد دبرت فى الأيام الأولى لسجنهما عدة مشروعات للفرار ولكنها كانت كلها محاولات سخيفة مقضى عليها بالفشل ولم تخلف أثرا إلا تشديد الرقابة على الملك وزوجه فلم يعد يسمح لهما بحيازة الورق والأقلام . بل ولا السكين والمقص ومنعت الملكة من التطريز خشية أن تخفى فى غضونه رسالة رمزية تمكنها من التفاهم مع غيرهم خارج السجن . وكانت الأسرة تتناول فطورها فى الساعة التاسعة بغرفة الملك ثم ينتقلون الى غرفة الملكة حيث يأخذ الوالد فى تعليم ولده والأم فى تعليم ابنتها وفى الساعة الواحدة يخرجون قليلا للرياضة ثم يعودون للغداء فى الساعة الثانية وبعد العشاء يفرقون كل الى غرفته ثم يعودون للاجتماع فى اليوم التالى^(١) .

(١) قضايا التاريخ الكبرى (الأستاذ عنان) .

وهكذا لبث الملك هو وأفراد أسرته في هذه الدعة المظلمة وفي ذلك السكون المعتم بينما كانت تجري المناقشات العاصفة في دار المؤتمر حول محاكمته وهل هي جائزة قانوناً أو غير جائزة .

فبينما كان يدفع المدافعون عن الملك بحقه في الحصانة التي قررها له دستور سنة ١٧٩١ وأن جريمة الخيانة ومحاربة الأمة يعاقب عليهما بالعزل وأن هذا العقاب واقع فعلاً وأن الوزراء المسؤولين يجنبون شخص الملك وأن المؤتمر لا يجوز له أن يوجه التهمة للملك ويحاكمه عليها وإلا كان خصماً وحكماً في أن واحد . كان يرد عليهم أنصار المحاكمة بأن لويس لا حق له في أن يحتج بدستور سنة ١٧٩١ الذي لم يخلص له قط وأن الأمة هي التي قررت بالأمس عقوبة العزل وهي التي يحق لها اليوم أن تقرر عقوبة غيرها أقصى منها ما دامت هي مصدر كل قانون وأساس كل تشريع وأن الوزراء لا تجوز مسئوليتهم إلا عن الظاهر من الأعمال إذ كيف يسألون عن أعمال سرية يجهلونهم وقد تم تديرها من وراء حجاب ؟ أما اختصاص المؤتمر في محاكمة الملك فلا يصح الاعتراض عليه إذ لو قبل هذا الاعتراض فمن ذا الذي يقوم بالمحاكمة . وهل يمكن أن تحال القضية على دولة أخرى لتحكم فيها .

وانتهت هذه المناقشات بقرار وضعته اللجنة التشريعية للمؤتمر وهو يقضى بوضع تقرير اتهام بالوقائع المنسوبة الى لويس وأن يمثل لويس بشخصه أمام المؤتمر ويمنع حق الاستعانة بالحامين للدفاع عن نفسه .

وحمل اعلان الاتهام الى الملك في ١١ ديسمبر فذهب من فوره الى قاعة المؤتمر وهناك تلى عليه تقرير الاتهام وكانت التهم الموجهة اليه أنه حنث في اليمين التي أقسمها على احترام الدستور وأنه تخاير مع الأعداء برسائله وبأعوانه ورجاله وتآمر على سلامة الدولة ودعا الى غزو البلاد . وكان الملك يجيب عن هذه التهم واحدة واحدة تارة بانكارها وطورا بنسبتها الى وزرائه وطورا آخر باقرارها والاستناد في تبريرها الى نصوص الدستور .

وكان بين الذين تولوا الدفاع عنه أمام المؤتمر (ديسير) الذى خاطب المؤتمر بكلمته المشهورة ”أبحث فيكم عن قضية فلا أجد إلا متهمين“ وما ليشرب وزيره السابق الذى كان أظهر الناس ذمة فى وزارته وأخلصهم له وفاء بعد استقالته وتكلم الملك بنفسه فالتقى خطابا قصيرا ضمنه وجوه الدفاع التى رآها فى صالحه . ولكن نهض بعد ذلك (سانت چوست) الذى كان يشغل كرسي الاتهام وحمل



مانت چوست

على أقوال المدافعين وصور الملك في صورة المستبد الماسهر المتواضع الذى طغى بمهارة ثم دافع عن نفسه بأدب وتواضع ^(١) .

واقترح الجيرنديون بلسان فرينو أن يستفتى الشعب فى الأمر فرفض الاقتراح ووصف بأنه ندالة سياسية ومدعاة للحرب الأهلية وتفريق الكلمة .

وفى ٧ يناير سنة ١٧٩٣ طرحت الأسئلة الآتية على المؤتمر لابتداء رأيه فيها وهى :

(١) هل ارتكب (لويس كاپيه) جريمة التآمر على حرية الشعب وسلامة الدولة ؟

” فقرر المؤتمر بالإجماع ثبوت التهمة “

(٢) هل يطرح الحكم الذى يصدره المؤتمر على الشعب لاقضائه ؟

” فرفض الطلب بأغلبية ٤٢٣ صوتاً ضد ٢٧١ “

(٣) ما هو العقاب الذى يوقع على لويس ؟

وهنا تضاربت الآراء فأقضى ٣٨٧ باعدام الملك وأقضى الباقون بعقوبات أخرى بين السجن والنفى والاعدام مع إيقاف التنفيذ . ولا ريب فى أن الخطوة التى قررها اليقافة لأخذ الأصوات هى التى

(١) قضايا التاريخ الكبرى (الأستاذ عنان) .

كانت سببا في هذا الحكم فقد نصبت منصة عالية كان ينتقل إليها كل عضو بدوره ليعطى صوته من فوقها جهارا على مسمع من كل الحاضرين . وكان الغوغاء على صلة بما يجرى في القاعة فكان الأعضاء يقررون الإعدام تحت تأثير هذا الارهاب . حتى أن فرنيو الذي كان يقول باستحالة إعدام الملك لم يتمالك وهو على المنصة إلا أن يعطى صوته بإعدامه . وعلى الرغم من كل ذلك فقد صدر الحكم بناء على تلك الأغلبية الضئيلة التي لم تتجاوز الخمسين إلا بقليل .

وكان الملك في غرفته ينتظر الحكم حين دخل عليه ما ليشرب والدموع تملأ عينيه فالتفاه جالسا في الظلام وقد اعتمد بمرفقيه على مائة أمامه وأخفى وجهه بين يديه فلما أحس بزائره رفع رأسه إليه وقال: " لقد قضيت ساعتين أفكر فيما لو كنت أنيت أثناء حكمي ما أستحق عليه أدنى لوم من رعيتي ولكنني أقسم وأنا في طريقى الى الله أنى ما آليت جهدا في تحقيق سعادة الشعب طول حياتى^(١) ! " .

وطلب الملك أن يمهل ثلاثة أيام يستعد فيها للقاء ربه — وأن يسمح لللكة وأولادها بمغادرة فرنسا — وأن يسمح له برؤية

أسرته قبل الموت - وأن يباركه قسيس يختاره لنفسه - فرفض
الطلبان الأولان وسمح له بالأخيرين .

وفي الساعة الثامنة والنصف من مساء ٢٠ يونيه سمح لأسرة
الملك بمقابلته فارتمت الملكة على قدمي زوجها وأغمدت على ابنته بين
ذراعيه وجعل ولي العهد يصرخ صراخا يمزق القلب واستمر ذلك
المنظر المؤلم زهاء ساعتين ساد فيهما العويل والتحجب والأنين .

ثم عاد الملك الى قسيسه وابث معه حتى منتصف الليل ثم نام
نوما عميقا بعد أن أوصى خادمه أن يوقظه قبل الساعة الخامسة
في الصباح .

وفي فجر اليوم التالي نهض الملك وطلب إليه قسيسه أن يكفى
نفسه وأسرته ألم الاجتماع بها من جديد فأجابه الى طلبه . ثم حانت
الساعة وركب الملك عربية الاعداد الى (ميدان الثورة) حيث
نصبت الجيلوتين في فراغه الشاسع وأقيمت حوله المدافع وأحاطت
بها فرقة كبيرة من الجنود .

ووصل موكب الملك الى تلك الساحة في الساعة العاشرة صباحا
فترل من العربية وصعد سلم المقصلة بقدم ثابتة وأحنى رأسه لباركه
القسيس فوضع عليه يده قائلا "اصعد يا ابن القديس لويس الى
السماء !" ثم حاول الملك بعد ذلك أن يخاطب الناس فمشى الى



لويس السادس عشر يبعد الى الجبلتين

جانب النطع وقال ”إني برىء وأسأل الله أن لا تقع التبعة في دمي على رأس فرنسا“ ولكن ضاعت بقية كلامه وسط قرع الطبول واقتاده الجلادون الى حد السكين .

وفي الساعة العاشرة والدقيقة العاشرة رفع الجلاد الرأس المقطوع للجهاديين فنهتفوا بصوت واحد . ”فلتحيا الجمهورية“ !

♦ ♦ ♦

والآن ماذا يقول المؤرخ المنصف تعقيا على هذا الوصف المحزن وتعليقا على هذا الحادث الأليم ؟

لقد كان لويس طيب القلب محبا للاصلاح . ولقد ورث الثورة ولا شك عن أجداده وأسلافه . وكان خيرا منهم جميعا في القيام بالواجب نحو الشعب وكان لا يعدل خوفه من الله ، لا حبه لرعيته . ولكن هل يدعوننا ذلك الى أن ننسى أنه لم يكن إلا فردا من أبناء فرنسا جعلته التقاليد ملكا عليها وأن ألؤفا من هؤلاء الفرنسيين المستعبدين التعساء كانوا يجاهدون في سبيل الحرية ويشقون في جهادهم لتنسم ريحها وأنهم بينما كانوا يضحون بأرواحهم وأرواح أبنائهم وهناء أزواجهم في هذا السبيل كان الملك يستسلم بضعفه للجبارة الذين أحاطوا به ليستعين بأعداء الثورة على إخماد أنفاسها ؟ هل يحق لنا أن ننسى أن شخصا آخر أهم في حياة العالم

من شخص لويس هذا وهو شخص المجتمع الفرنسى كانت تهدده جيوش الغزاة فى الخارج بينما يتأمر أنصار هذا الملك عليه فى الداخل ؟

إن الانسان ليفكر فى مصير هذا الملك التعس فلا يتمالك أن يحزن عليه ويتوجع لما أصابه . ولكنه لا يلبث أن يرسل من صدره زفرة طويلة يردد فيها قول الملك نفسه :

”اللهم اجعل دمه البرىء فداء لفرنسا“

الفصل الرابع

التحالف الدولي الأولى

انتصرت جيوش الثورة في ألمانيا وبلجيكا وأصبحت تهدد هولندا وما وراءها . وشجعها هذا النصر على اصدار قرار ١٩ نوفمبر الذى يعتبر بمثابة تحريض على الثورة وشق عصا الطاعة على الملوك فى كل مكان . وانضمت بالفعل بلجيكا وسافوا (Savoy) الى فرنسا وهلعت الدول لدى رؤية هذا الفوز المبين وتلك الغنائم العظيمة ورأت انجلترا أن الترامها الحيدة سيكون قضاء على التوازن الدولى فى أوروبا فنشطت لوقف فرنسا عند حثها واستفزها الى ذلك ما بلغها أخيرا عن مقتل الملك وشجعها على دخول الحرب ما عرفته من سخط أوروبا جميعها على الثورة بعد هذا الحادث المشؤم — وعصيان بعض الولايات الفرنسية نفسها مثل (برتنى ولافنده) ونفورها من زعماء الثورة عقب قيامهم بهذا العمل الممقوت وانشقاقها على باريس ومن فيها وخروجها على الحكومة المحلية — فعمل (پت) وزير انجلترا على تأليف اتحاد دولى لمقاومة الثورة والقضاء عليها . فأجاب دعوته ملك اسبانيا

وهولندا وانضمت اليهم النمسا وبروسيا وسارت جيوشهم المتحالفة لغزو فرنسا من جهات ثلاث .

فانهزمت كتائب كاستين أمام جيوش الغزاة وانسلخ من فرنسا كل ما انضم اليها في حربها السابقة إلا مدينة ماينز فانها بقيت بأيديهم زمانا . أما ديمورييه فردّه النمساويون في نيروندين (١٨ مارس سنة ١٧٩٣) فوقف عن القتال وفكر في إرجاع الملكية ولكن جنوده لم توافقه على هذا الرأي . وكان لانخذه وفراره أكبر أثر في إيقاظ إحقاد الجلبين على منافسيهم الجيرنديين . وجاءت هذه المغامرة من جانبه ضربة قاضية على حزبه . فان يعقوبيين لم يتركوا الفرصة تفلت من أيديهم وقاموا يرمون الحزب بداء زعيمه . ووجهوا الى كافة أعضائه تهمة الخيانة وأحاطوا بقاعة المؤتمر وطلبوا إلقاء القبض على رؤساء الجيرنديين فطرح في السجن من زعمائهم نحو ٢٢ ولكن لم يلبث هؤلاء أن أفلت بعضهم وانشروا في أنحاء فرنسا حاملين ألوية الخروج على رجال الثورة . فطاردتهم الحكومة وأهدرت دمهم غير أنهم تمكنوا من إثارة الفتنة وأفلحوا في ازعاج غرمائهم واشتعلت بذلك في أنحاء البلاد نار الحرب الأهلية وقامت مرسيليا وطولون وبردووليون في وجه الجلبين وأعلن أهلها خروجهم على طاعة الحكومة القائمة في باريس .

الفصل الخامس عشر

مقتل مارا

في شهر يناير سنة ١٧٩٣ قتل الملك .

وفي شهر فبراير سنة ١٧٩٣ تألف التحالف الدولي ضد فرنسا .

وفي شهر مارس — انهزمت الجيوش الفرنسية تحت ضغط

الحلفاء وارتد أمامهم ديمورييه ثم ظهرت خيانة هذا القائد وتبين

أنه كان يعمل على قتل الثورة وتولية ملك على فرنسا من سلالة

أورليان . فكان ذلك سببا في هياج الجبلين الذين قرروا نفي

دوق أورليان وجميع من بقى من أسرة بوربون وأعادوا ” محكمة

الثورة ” ليستعينوا بها على التخلص من أعداء الثورة .

وفي شهر أبريل — تألفت لجنة الأمن العام من ٩ أعضاء

يتجدد انتخابهم كل شهر . وخولت هذه اللجنة سلطة دكتاتورية

مطلقة لتتولى كيفما تشاء أمر المحافظة على السلام في الداخل ودفع

خطر الحلفاء في الخارج .

وفي شهر مايو — أثمرت العقوبة بالجيرندين لأخذهم بحرية

زعيمهم الخائن ديمورييه رغبة منهم في القضاء عليهم .



مارا

وفي ٢ يونيه سنة ١٧٩٣ — أحاط نحو ٨٠ ألف من غوغاء باريس بقصر التويلرى حيث كان يجتمع المؤتمر ودلّبوا القبض على زعماء الجيرندين . فقدم مارا (رئيس نادى اليقابة) كشفا بأسماء ٢٢ زعيما منهم فألقى القبض عليهم . وطرحوا جميعا فى السجن .

وفى نفس الشهر تمكن كثير من الجيرندين المسجونين من ترك سجونهم وانتشروا فى أنحاء فرنسا كما أسلفنا . يدون بذور الفتنة فى كل مكان . ويشيرون الرأى العام فى الأقاليم على الفظائع التى كان يرتكبها مارا وأمثاله فى باريس فنارت بوردو ومقاطعة الجيروند بأكلها ثم ثارت مرسيليا وليون ثم قامت تولون فجاهرت بمصيانها لحكومة باريس وزادت على ذلك أن أقامت لنفسها حكومة محلية وأعلنت ولد اويس السادس عشر (سجين التامبل) باسم اويس السابع عشر ملكا عليها . وأقابت أساطيل الحلفاء لحمايتها وإمدادها عن طريق البحر بما تحتاج اليه من غذاء وسلاح .

هذه خلاصة تاريخية متسلسلة للحوادث التى أشرنا اليها فى الفصول السابقة رأينا أن نردها دنا على هذه الصورة لتكون بين يدى القارئ ضابطا لتلك الحوادث وتعاقبها . ونضيف اليها الآن أنه :

فى يوم ٩ يوليه سنة ١٧٩٣ - غادرت (شارلوت كوردای) قرينها فوصلت باريس فى ١١ يوليه وتمكنت من الدخول على (مارا) بعد ذلك بيومين آخرين . فأخذت معه فى الحديث قليلا ثم استلت من تحت ثيابها سكيناً طعنته بها فى صدره طعنة أردته قتيلا .

فليحفظ التاريخ لهذه الفتاة الجريئة أنها هدمت أصلب أركان الثورة وأنها صاحبة الطعنة الأولى فى قلب الارهاب والقائمين به ولتسجل لها الانسانية شكرها اعترافاً بتضحياتها الخالدة ونزولا على إرادتها فى ندائها الشهير الذى كتبته قبل فعلتها بأيام وهى تقول فيه :

”أى وطنى ! إن مصائبك تمزق قلبي ! وليس فى وسعى أن أهبك سوى حياتى وإنى أحمد الله الذى وهبني حرية التصرف فيها . أريد أن يكون من زفرتى الأخيرة خيراً لأبناء الوطن وأن يكون رأسى المحمول فوق رمح فى طرقات باريس علم الاتحاد لكل أنصار القانون وأن يرى اليعاقبة المخنولون حتفهم مكتوباً بدمى . وأن أكون آخر فراسمهم . وأن يعلن العالم الذى انتقمتم له أننى خليفة بشكر الانسانية ! “ .



شارلوت کوردای

افضل السباوس

شارلوت كوردای

أما شارلوت كوردای هذه فكانت فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها يغنيها إثبات صورتها عن الافاضة في وصف جمالها . نشأت في دير مدينة (كاين) من أعمال برتنى (Brittany) في غرب فرنسا وبقيت فيه حتى قررت الجمعية التشريعية إغلاق الأديرة فعادت الى قريتها . ولكنها استمرت كما كانت في الدير مكبة على المطالعة ودراسة النظريات الحديثة التي كانت لها السيادة في ذلك العصر . وبقيت تتبع حوادث الثورة بغاية الاهتمام والحماسة . وكانت منذ نشأتها جمهورية التزعة تمجد حكومة الجيرنديين وتحمس لها وتعجب برجالها . فلما تقدم الياعابة الى الميدان وتسببوا في إعدام الملك امتلأت نفسها سخطا عليهم واشتدازا منهم وازداد إعجابها بكياسة الجيرنديين واعتدالهم . ولكنها ما لبثت أن رأت أيدي الياعابة التي لوثها دم الملك تمتد الى أعناق الجيرنديين أنفسهم فزادت كراحتها لهم واشتد مقتها لزعمائهم وأخصمهم مارا شيطان الثورة وجلادها وبطل مذابحها فكانت تحقد عليه وتكرهه بقدر

ما كانت تعجب بزعماء الجيرنديين وتحبهم وأخيرا وفد جماعة من
تواب الجيرنديين الذين فزوا من السجن الى مدينة كاين . فذهبت
شارلوت اليهم مسوقة بعامل الإعجاب والاكبار وحب التقرب منهم
والتعارف بهم وهناك سمعت أحاديثهم عن مارا ووحشيتها وتعطشه
للدماء وأنه صرح أخيرا بأن عدد الرؤوس التي يرى وجوب قطعها
ليستب السلام في فرنسا ينبغي أن لا يقل عن مائتين وستين ألفا
فها لها ما سمعت وارتاعت نفسها لهذا الخبر واتهب صدرها بغضا
لذلك الطاغية السفاح وعقدت نيتها على أن تفدى برأسها الجميل
تلك الآلاف الكثيرة من الرؤوس البريئة التي كان يريد قطعها مارا!

وحدث يوما أن وقف (باربارو) أحد أولئك الزعماء الفارين
يخطب فشرح الحالة السيئة التي أصبحت عليها فرنسا ثم اندفع
في حماسه وقال « إنه إذا لم تظهر جان دارك جديدة وإذا لم ترسل
السماء نجمة سماوية وإذا لم تحدث معجزة خارقة فعلى فرنسا السلام! »^(١)

فوقعت هذه الكلمات في نفس تلك الفتاة الطاهرة موقع
السهم وشعرت أنها مقصودة بهذا النداء وأن العناية ساقط اليها
ذلك الخطيب لينبها الى الواجب الذي خلقت له . وكانت بعد

ذلك تقضى كل وقتها فى التأمل والتفكير وتدير ما يلزم للقيام بذلك
العمل الخطير الذى نذبت له . وأخيرا قتر قرارها فأجمعت أمرها
واعترمت الرحيل .

وفى عصر يوم الثلاثاء ٩ يوليه سنة ١٧٩٣ استقلت شارلوت
كوردای عربة البريد الى باريس فانتحيت ناحية فيها ولم تسترك
مع المسافرين فى أحاديثهم لأنهم كانوا ينظمون قلائد المدح للجبليين .
وسارت بها العربة ليلة الأربعاء وطول يوم الأربعاء وفى ضحى يوم
الخميس دخلت بها مدينة باريس الواسعة المزدهجة فنزلت الفتاة الى
خان هناك حيث استأجرت غرفة وألقت بنفسها فى فراشها فنامت
بقية اليوم واسترسلت فى نومها طول الليل ثم استيقظت فى صباح
الجمعة فزارت قاعة المؤتمر ورأت فيها حزب الجبل كيف يكون
ولكنها لم تروجه مارا لأنه كان فى داره مريضا لا يقوى على الخروج .

وفى الساعة الثامنة من صباح السبت خرجت من خانها
فابتاعت نصلا طويلا ثم استأجرت عربة وأمرت سائقها أن
يذهب بها الى شارع مدرسة الطب نمرة ٤٤ حيث كان يقيم غريمها
الذى أقبلت تسعى اليه من غرب فرنسا الى شرقها . ولكن مارا
لم يكن يقابل أحدا فارتدت الفتاة على أعقابها وأرسلت اليه من
خانها الرقعة الآتية :

”لقد جئت من كاین مقر العصیان وأرغب فی رؤیتك فوراً
لأمكنك من القيام بخدمة عظيمة لفرنسا“ .

ولبثت تنتظر الرد ولكن ذهب انتطارها سدى فاعترمت أن
تذهب بنفسها اليه مرة أخرى .

أما مارا فكان مريضاً حقاً . وكان محمواً يعاني أقسى الآلام .
فأى مرض ترى ذلك الذى يقعد بهذا المارد المتوحش وأى عاهة
تلك التى تناسب روحه الجبارة؟ انه كان يشكو أكلة حادة فى جلده
لعلها هى التى كانت تهيج أعصابه وتثير احساسه وتكسبه تلك
الضراوة التى امتازت بها قسوته وشدة . ويعزى اليه أن أعداء له
كانوا يطاردونه ويطلبون دمه ففر منهم واتمس الخلاص لنفسه
بالاختفاء عن أبصارهم فاحتفى فى مجرى من مجارى القاذورات
فتأكل فيه جلده . وخرج منه بعد ذلك وهو يقول لا مساس !
وظل بقية عمره يقضى أكثر وقته فى حوض مملوء بالماء ليخفف
بعض آلامه وكانت له على صفحة الماء لوحة من الخشب قد جعل
فيها ورقاً يلوث أديمه بأفكاره وخواطره . ويخط فوقه أسماء من
يريد أن يقذف بهم تحت مسكين الجيلوتين .

ونجحت شارلوت من خانها تقصد داره من جديد . وكان
ذلك فى الساعة السابعة من مساء ١٣ يولييه أعنى فى ليلة عيد

الحرية الذى تضطرب له باريس وتموج والذى وقف فى مثله
مارا منذ أربع سنوات أمام الباستيل يصبح بحاميته أن تنزل إليه
وتسلمه سلاحها .

قرع الباب وسمع مارا وهو فى حوضه صوتا رقيقا يعارض
صوت سيمون افرار (وهى المرأة التى كانت تعاشره) إذ يقول
الصوت: "لا بد لى أن أراه !" فتقول سيمون محتدة: "ولكنه
لا يرى أحدا !" وعرف الرجل أن الزائر لا بد أن يكون تلك
الفتاة التى تريد أن تقدم لفرنسا خدمة عظيمة . فأذن لها فدخلت
ودار بينهما الحديث التالى :

— إننى من كايين وأريد التحدث اليك ؟

— اجلسى يا بنيتى . ماذا يفعل الخونة فى كايين ؟ ومن هم
النواب الذين هناك ؟

— باربارو... بيتيون ...

— سوف لا تبقى رعوهم فوق أكثافهم بعد ١٥ يوما ! ...

بيتيون ... ولوفيه Louvet ... ؟ ومن أيضا ... ؟

غير أن الفتاة كانت قد انتهزت هذه الفرصة التى أكب صاحبنا
فيها على لوحته يكتب أسماء فرائسه فاستلت نصلها من تحت ثيابها
وأغمدته فى صدره العارى بكل قوتها فصاح الطاغية :

”إلى يا عزيزتى ! ... إلى !“ .

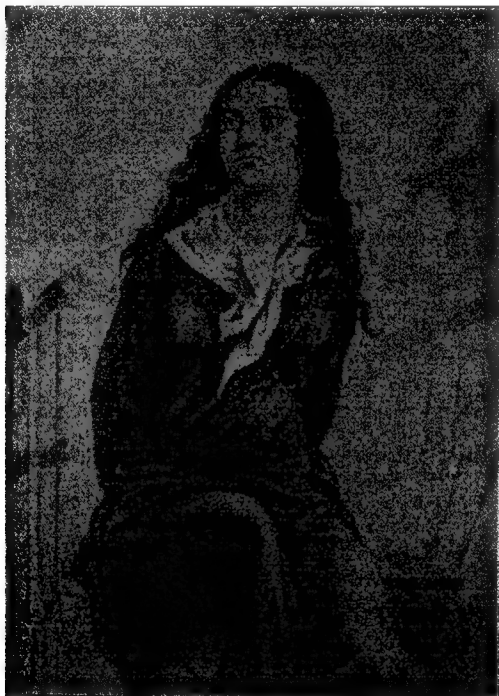
ولكن لم تكن تجدى النجدة بعد تلك الطعنة النجلاء . فان رأسه الدميم المتهالك مال الى الوراء وأسلم السفاح روحه الآثمة غير مأسوف عليه .

وملأت سيمون الدنيا بصراخها وغص المكان بالوافدين وحاول بعضهم أن يصل الى شارلوت ولكنها قلبت بعض الأثاث الذى بالغرفة وتحصنت خلفه حتى أقبل البوليس فأسلمت نفسها اليه بكل هدوء .

ولم تكن تشك الفتاة قط فى مصيرها فكانت مثال الثبات فى قاعة المحاكمة كما كانت مثال الشجاعة على نطح الجلاد . ولقد تقدم أحد زبانية المقصلة يقيد رجلها فامتنعت بإباء ظنا منها أن فى هذا العمل إهانة لها فلما أفهمت أن تلك احدى (تقاليد) الجليوتين اعتذرت فى رقة وخفر . ولما امتدت يد الجلاد ليتزع المنديل الذى كان حول جيلها علت وجهها ونحرها حمرة النجمل وكانت لا تزال صفحة خدها مشرقة بهذا اللون الوردى عندما رفع الجلاد رأسها المقطوع حسب عادته ليريه للناس !

ويقول بعض الحاضرين أن النذل قد صفعه . ولكن الراوى يقول أيضا أنه عوقب على ذلك بالسجن^(١) !

(١) قضايا التاريخ الكبرى للاستاذ عنان وتاريخ الثورة لكرايل .



شارلوت کوردای

الفصل السابع

لجنة الأمن العام وروبسبير

كان فرار ديموربيه الى الأعداء سببا في نكبة الجيرنديين . وكانت نكبة الجيرنديين هذه سببا في قتل مارا وفي تفرد الجبلين بالحكم واختبال شئون الادارة وانشار الفتنة في أنحاء البلاد .

وتغيرت خطة الدول المتحالفة بعد ما بدا لهم من انقسام فرنسا وقيام بعض جهاتها على بعض فبعد ان كانت نيتهم مقاومة الثورة ومحاربة القائمين بها اتجهت أنظارهم الى تقسيم فرنسا وتوزيع أسلابها بين أنفسهم . فاستولى الانجليز والنمساويون على كونده وفالنسين واستعاد البروسيون ما أخذه منهم كاستين وانتصرت جيوش اسبانيا على الفرنسيين في جبال البرانس . وزادت إنجلترا هذا الطين بلة بأن أعلنت الحصر البحري على جميع الموانئ الفرنسية . فلم ير الجبليون ازاء هذه الرزايا إلا أن يعلنوا من جديد أن الوطن في خطر وأن لا سبيل لخلاصه إلا تركيز السلطة في يد هيئة صغيرة تحوّل سلطة واسعة مطلقة لدفع هذا الخطر عن البلاد . وكان أعضاء لجنة الأمن العام يعاد انتخابهم بعينهم كل شهر منذ

تألفت تلك الهيئة في شهر أبريل . فلما جاء دور تجديدها للمرة الثالثة . في يونيه سنة ١٧٩٣ استبدل ببعض أعضائها غيرهم . وتولت الهيئة الجديدة حكم فرنسا لغاية يولييه سنة ١٧٩٤ ويعرف عهده في تاريخ فرنسا باسم "عهد الارهاب" . لأن اللجنة لم تتعفف في سبيل الوصول الى غاية من غاياتها عن سلوك أشد السبل قسوة وأكثرها وحشية واستكثرت من القوانين الاستثنائية التي تمكنها من ارهاب أعداء الجمهورية والتنكيل بهم وجعلهم عبرة لغيرهم حتى لا تزيع بعد ذلك نفس أو يحميد عن الوفاء للجمهورية قلب .

وتألفت هذه اللجنة من كوتون أحد أصدقاء روبسبير وسان جوست أوفى أصفياه وستة آخرون كان سابعهم روبسبير نفسه . وعلى الرغم من أن روبسبير هذا في تلك الفترة (يولييه سنة ١٧٩٣) لم يكن قد بقى له غير سنة واحدة يحياها في هذا العالم . فانه كان لا يزال بين زعماء الثورة الكثيرين فردا من الأفراد العاديين لم يرتفع بعد الى تلك المرتلة الفذة التي بلغها قبل مقتله ببضعة شهور والتي تتخسف ازاء سطوعها منازل غيره من زعماء الثورة اجمعين .

والسبب في بلوغ روبسير هذه المنزلة راجع الى أنه بدأ حياته زعيما من زعماء المتطرفين في الجمعية الوطنية الأولى أيام كانت تضم الجمعية بين أعضائها زعماء الأحزاب المختلفة من ملكيين رجعيين . ودستوريين معتدلين . ويعاقبة متطرفين . فلما انحلت الجمعية الوطنية وجاءت الجمعية التشريعية ضعف فيها حزب الملكيين وعظم بها شأن الحزبين الآخرين . ثم لما انحلت الجمعية التشريعية وجاء المؤتمر الوطني ضعف حزب المعتدلين . وازداد حزب اليعاقبة قوة على قوته . ثم تطورت الأمور وأسفرت عملية التصفية مرة أخرى عن اندثار الجيريندين كما اندثر غيرهم وأصبح الأمر للجنة الأمن العام . فاذا روبسير عضو فيها كما كان عضوا في كثير من سبقها من الهيئات والى هذه الحقيقة يرجع السرف في نفرد هذا الزعيم بتلك المنزلة التي تحتلها عنها فيما سلف إذ بينما كانت الأحزاب الأخرى يتقلص نفوذها شيئا فشيئا وتختفى وراء الأفق رويدا رويدا كان حزب اليعاقبة الذي ينتمى اليه روبسير يزداد رسوخا وقوة ويستمد ساعده صلابة وقوة . وبينما كان زعماء الأحزاب الأخرى يتألقون نجمهم في سماء السياسة ساعة ثم يغرب كان نجم هذا الزعيم ثابتا

واسمنا لا تزيده الحوادث إلا بريقا وقوة وثبوتا . وعلى هذا الأساس
 الرصين الذى ظل روبسير يدعمه أربع سنوات متتالية كان من
 الممكن أن تقام فى سنة واحدة تلك الشهرة الشاهقة التى لا تزال الى
 اليوم فى فم الناس والتاريخ .

الفصل الثامن

أعمال لجنة الأمن العام

امتازت لجنة الأمن العام منذ توليها تلك السلطة المطلقة بالبساطة التامة في تصرفاتها والبعد عن أى تعقيد . فاذا عرض لها مثلا من تشبه في أمره . فاقامة الدعوى عليه في نظرها تعقيد وسماع الشهود في شأنه تعقيد ومحاكمته واصدار حكم له أو عليه بحقيقات طويلة تعقيد فوق تعقيد . أما خطتها البسيطة التي كانت تجرى عليها في مثل هذه الظروف فهي أن توجه تهمة (الاشتباه) الى المتهم ثم تحكم عليه بناء على ذلك بالاعدام . فتقطع رأسه الجيلوتين وتفرغ اللجنة من أمره لتتنصرف الى ما بين يديها من الأعمال . أو لم تتجاوب الدعوة في أنحاء البلاد : إن الوطن في خطر ! ؟

وكان أول ما اتجهت اليه همة اللجنة ان شرعت في تدمير المال اللازم لها في تنفيذ مشروعاتها ومطاردة أعدائها . فلأت خزائنها بتقرير ضريبة الزامية على الأغنياء . فكان كل من تراوحت ثروته

بين ألف فرنك وعشرة آلاف فرنك يدفع عنها الخزانة العامة ١٠ ٪ .
أما ما يزيد عن العشرة آلاف فرنك فكانت تأخذه اللجنة بأكمله
لمدة عام .

ثم انصرفت الى التجنيد فاتبعت فيه أيضا نفس البسطة .
وقررت تعبئة الأمة الفرنسية بأسرها تعبئة عامة ” فأما الشبان
فيذهبون الى ميدان القتال . وأما الأزواج فيبقون في المصانع
لاعداد الذخيرة وصنع السلاح . وأما الزوجات فيفرغن للحياض
ونصبها والجرى وتطعيمهم وتهئية الطعام واللباس وأما الصبية
فيشتغلون بتحويل الخرق والمزق الى أربطة لتضميد الجروح .
وأما الشيوخ فيستقرون في الأسواق لانهاض الهمم وتغذية النفوس
بالغيرة والحماسة ^(١) “ .

تلك كانت عتة اللجنة لدفع الخطر الخارجى . أما ما أعدته لدفع
ما كان يتهدها من الخطر الداخلى فكان قانون الاتهام الذى شرحت
لك بساطته فى مستهل الفصل ولقد رأيت اللجنة أن تأمن جانب
القلاء والمجاعات فحدت أسعار الحاجيات . ثم قررت اعتبار كل
تاجر يتخلى عن عمله (مشبوها) ينطبق عليه (قانون الاتهام) . كما

أنها جعلت عقوبة من يخزن بضاعته الاعدام . وهكذا أراحت هذه اللجنة نفسها من حيث تعب الفلاسفة والمشرعون ! !
ولعلك لا تعجب اذا عرفت بعد ذلك أن هذه الخطط الحكيمة قد أثمرت ثمرا طيبا اذ لم ينقض شهر يوليه حتى كان ثوار الشمال قد خضعوا لجيش اللجنة الداخلى وتبع أهل الشمال عصاة المغرب سكان بوردو فانهم أخلدوا كذلك الى السكينة والهدوء ثم دخل في طاعة اللجنة أهل مرسيليا . أما ليون فانها استعصت قليلا فدام حصارها من أغسطس لأكتوبر وانتقلت اللجنة منها على قيامها في وجهها واقلاق بالها كل هذه المدة الطويلة بأن سلطت عليها المدافع ودمرتها تدميرا . وأقامت على أنقاضها نصبا نقشت عليه آية من آيات حكمتها البالغة وهى :

” ليون حاربت الحرية، فحيت من الوجود بالكلية “ .

وبلغ من عناية اللجنة بأمر هذه المدينة ان انتدبت عضوا من أعضائها ليذهب اليها ويشرف بنفسه على هدم البلد وقتل أهلها فكان يحصد رؤوسهم حصدا ويلقى بأجسامهم في نهر الرون قائلا :
” دعوا الجثث تسبح حتى تبلغ طولون لتنذر أهلها بما سينالون “ !
وفى الحق أن طولون كانت آخر مدينة من المدن التى بقيت خارجة على الثورة في جنوب فرنسا وما كانت لترجع الى حظيرتها

مرة أخرى بعد معاونة الانجليز لما لولا أن رمتها الحكومة بضابط مدفعى كورسيكى صغير نابغة أحكم حصارها فسلمت له صاغرة ولم تغن عنها معاونة الانجليز شيئا . وكان اسم ذلك الضابط الصغير نابليون بونابرت !

وبقيت لا فنده وحدها فى كل فرنسا بعد تولون تحمل لواء العصيان على الثورة وتابى أن تخضع لحكومة باريس فلم تر اللجنة بدا من اباداة أهلها والتخاص منهم مرة واحدة ما دامت لا تجد وسيلة أخرى تأمن بها جانبهم .

أما فى دفع الخطر الخارجى فان اللجنة لم تكن أقل توفيقا . والفضل فى تسيير الحرب على الحلفاء بهذا النجاح الباهر الذى أحرزه النمسيون انما يرجع الى (كارنو) أحد أعضاء لجنة الأمن العام . وكانت الجيوش الفرنسية قبله على ما وصفناها عند ما أطلت عليهم جيوش النمساويين سنة ١٧٩٢ فلما وكل أمرها اليه أخذ فى تنظيمهم وتدريب ضباطهم وتخير قوادهم وكانت أقل هفوة تبدر من أحد الضباط تكفى (للاستباه) فى أمره حيث لا جزاء أقل من الاعداء . فسار (چوردان) أحد القواد الأحداث الى النمساويين ففرق شملهم فى (Wattignes) واتبنى (فى أكتوبر سنة ١٧٩٣) ودخل (يشيجرو) أحد زملائه حصون أفرس عنوة



كارنو

في يولييه سنة ١٧٩٣ وتم استيلاؤه على هولندة في ديسمبر من نفس السنة . ولم ينقض عام ١٧٩٤ حتى كانت فرنسا صاحبة السيادة في البلجيك وهولندا ونيس وسافوا وشاطئي الرين الغربي وهي الحدود التي كان يحلم بها لويس الرابع عشر ولا يستطيع تحقيقها .

وكانت بروسيا قد انسحبت جيوشها الى بولندة (سنة ١٧٩٣) فاصطلحت بمقتضى معاهدة (بال) Basle مع فرنسا في أبريل سنة ١٧٩٥ وكذلك فعلت اسبانيا فلم يبق من التحالف الدولي غير إنجلترا والنمسا .

الفصل التاسع

عهد الارهاب

عرفت في الفصل السابق نفور لجنة الأمن العام من التعقيد في تصرفاتها وعرفت أنها شرعت قانونا خاصا لتسهيل أعمالها باسم "قانون الاتهام" كان يعاقب على مجرد الاشتباه والشك . وكان لا بد لمثل هذا القانون من محكمة بسيطة على شاكلته لتقوم بتطبيقه فألقى هذا العبء على عاتق "المحكمة الثورية" فقامت به خير قيام . وكان نظام العمل فيها أن يقدم اليها المشتبه في أمره فتبادل معه كلمة أو كلمتين توجه فيهما التهمة اليه فينكرها عادة وقبلما كانت تسمع عنه دفاعا ثم تحكم عليه بالاعدام ! وعند ذلك يأتي دور "الجيلوتين" .

تلك كانت أدوات الإرهاب التي بدأت عملها المشؤم منذ وليت لجنة الأمن العام حكم فرنسا .

وكانت الملكة لا تزال مع ولسيها في سجن التامبل . على أن هذه النعمة لم ترم عليها طويلا . فصدر قرار اللجنة في يولييه "بأنه



مارى انتوانت فى السجن

يفصل ولد كاييه عن أمه“ . وحاولت الملكة عبثا أن تدفع رجال البلدية عن سريره ولدها النائم وهي تصيح : ”أقتلونى أولا“ ولكن يد القوة انتزعته منها غصبا ودفعت به الى إسكاف اسمه (سيمون) كان في خدمة (التامبل) في ذلك الوقت ليشب بين يديه على مبادئ الثورة . وفي وسعك أن تقدر مبلغ الانقلاب الذي وقع لهذا الصبي المسكين اذا عرفت أن سيمون هذا الذي كان يرعاه نقل من خدمته الى عمل آخر فظل الغلام طريقا في حجرته ستة شهور لم يتغير فيها قيصه وهو الذي رضيت أمه بعد الجهد في أيام اقبالها أن تتبع طرق الاقتصاد في نفقاتها خفضت حاشية أخته الصغيرة الى ٨٠ حادما بشق الأنفس .

ثم نقلت الملكة بعد ذلك الى سجن (الكونسيرجرى) تمهيدا لمحاكمتها وخسبك أن تعلم كذلك أنه لم يسمح لتلك التعسة في مسكنها الحديد بغير ثوبين باليين ممزقين : أحدهما أسود ، والآخر أبيض لتعرف الى أية هوة نزلت مارى أنتوانت التي كانت نساء فرنسا المتبرجات يحسدن كلابها على ماتخلعه عليها من الحلى والثياب الفاخرة ! وكان خليقا بمن أدبرت عنه الدنيا هذا الإدبار أن يشير الرحمة في نفوس من حوله . ولكن هذه التعسة لم تكن تصيب ممن حولها إلا الزراية والامتهان ووجدت الصحافة الباريسية في شخصيتها



ولي المهسد

مرعى خصبا دسما تستمد منه الوسيلة للذبوع والرواج بما تفتن فيه كل يوم من ضروب التشهير بها والقذف في حقها .

وكان زعماء الثورة كذلك لا يرحون ينتدون بها في خطاباتهم . ويثيرون الرأى العام عليها ويدعون الى المطالبة بمحاكتها حتى قفز المؤتمر أخيرا إحالتها الى محكمة ثورية خاصة لتمثيل تلك المهزلة القضائية التى اعتادوا تمثيلها مع كل من اعترموا اختطاف روحه والخلاص من وجوده .

وفي الساعة الثامنة من صباح ١٥ أكتوبر سنة ١٧٩٣ بدأت هذه المحاكمة ودامت طول اليوم وبدأ الدفاع مرافعته في منتصف ليلة ١٦ أكتوبر . وفي الساعة الخامسة من صباح ذلك اليوم بعد جلسة دامت عشرين ساعة متوالية . صدر حكم المحكمة بادانة الملكة وإعدامها^(١) .

وسيفت بعد ذلك الى ساحة الاعدام بعد أن شد وثاقها وجز شعرها حسبما جرت به العادة مع من يحكم عليها بالاعدام . وكانت الجموع الحافلة الصاخبة تتلقاها على طول الطريق هائفة "لتحى الجمهورية !" و "ليسقط الظلم" .

(١) قضايا التاريخ الكبرى (للاستاذ عنان) .



ماری انتوانت تساق الى المقصلة

وفي ظهر ذلك اليوم كانت جثة الملكة ملقاة في العراء حيث بقيت نحو أسبوعين لا تجد من يعنى باحتفار حفرة لها في أرض فرنسا التي عاشت على ظهرها غريبة وأبى الثوار بعد موتها إلا أن تظل غريبة عن بطنها كذلك ! .

وهكذا انتهت تلك الحياة المزدهرة بالكبرياء والطيش ، الحافلة بالحن والآلام ! وإلى هذه الخاتمة المرة الذابلة انتهت تلك البداية الحلوة الناضرة ! .



وكانت التهمة التي وجهت للملكة وحكم عليها بالاعدام من أجلها هي تهمة (التآمر) . وكان يدخل في معنى (التآمر) عند الثائرين أن ينتسب الانسان الى الأسرة المالكة . فكانت إليزابث (متآمرة) لأنها أخت الملك . وسيقت لذلك الى آلة الاعدام . وكان دوق أورليان نفسه — المواطن مساواة — الذي نشأت الثورة في حجره ودرجت في حديقة قصره (متآمرا) كذلك وكان جراؤده على هذا التآمر الاعدام .

ثم اتسع معنى (التآمر) فأصبح يتناول فوق أعضاء الأسرة المالكة كل من كانت له صلة بالأسرة المالكة . فاعتبر (ماليشرب) (متآمرا) وأعدم ، واعتبر (باي) أيضا (متآمرا) وأعدم .

وغلا التوار في تعقب هذه الصلة حتى بلغوا مدام دى بارى خلية
لويس الخامس عشر فقالوا عنها أنها (متآمرة) كذلك وقدموها
لـالجيلوتين .

ثم توسعوا في تأويل (التآمر) مرة أخرى فدخل في دائرته فوق
من كانوا يتصلون بالأسرة المالكة كل من لم يكن يظهر بغضه
للأسرة المالكة ومن هذا الباب دخل الجيرنديون أفواجا بين دى
(سامسون) جلاد باريس كما دخل غيرهم . وفي الحق أن هذا الباب
كان فيه متسع للجميع . ولم تعد بقضاة المحكمة الثورية بعد من
حاجة الى الاسترسال في التأويل والتعليل !

وكثر الاقبال على الجيلوتين فأنشأ (سامسون) فروعا له في جميع
ميادين باريس الشهيرة بل أن مندوبيه انبثوا في الأقاليم مع مندوبي
لجنة الأمن العام .

الفضل العائش

في طريقهم الى الجلوتين

عادت الثورة كاهزة تأكل بنينا ! ودارت عجلة الدهر الغادر
بزعمائها ومفكرها، برؤاها وقوادها، فهوت بالجميع من حلق .
وألقته تحت أقدام الجلوتين ! .

صدر حكم الاعدام على زعماء الجرنديين . ونفذ الحكم فيهم
أجمعين إلا واحدا تعجل الموت بأن طعن نفسه عقب صدور الحكم .
أما الباقون فانهم قضوا ليلتهم بين الغناء والرقص كأنهم في عرس
حتى كان الصباح فركبوا عربات الاعدام وساروا بها الى لقاء (مامسون)
وكان الناس على طول الطريق يشيعونهم بقول "فلتحي الجمهورية !"
فكان يردد الأبطال هتافهم من العربية صائحين "فلتحي الجمهورية"
ومما يؤثر عنهم أنهم تقدموا الى ساحة الاعدام وهم ينشدون نشيد
المرسييز المشهور ! .

وأما "المواطن مساواة" — دوق أورليان الشهير — فقد كان
فريدا في يوم مماته كما كان فريدا فيما قبله من الأيام . ذهب الى



البنديون في طريقهم الى القصبة

المقصلة فى أزهى ملابسه وآخذها بالأبصار . وسارت به العربية أمام قصره (الباليه روابال) — فاذا مكتوب على حائطها بألوان العلم الفرنسى هذه الكلمات ”الجمهورية واحدة لا تتجزأ — حرية . مساواة . إخاء — ملك الأمة !“ .

فلمعت عيناه بومضة من نار، ولكنه ما لبث أن عاد الى هدوئه . وبلغت العربية ساحة الاعدام، فصعد الى سامسون بقدم ثابتة وتقدم اليه الرجل يخلع نعليه . فقال : ”لا بأس منهما . سيكون خلعهما أهون بعد الفراغ ! فهيا هيا !“ .

ثم جاء دور ”مدام رولان“ زعيمة الجيرندين وزوج النائب رولان . وركب معها فى طريقها الأخير رجل اسمه (لامارش) وكانت ترهقه من الكآبة فترة فاشتغلت تلك السيدة الكريمة بتسليته والتفريح عن نفسه ولما بلغا جانب المقصلة جلس الزميلان . وطلبت مدام رولان ورقا وقلما لتدون ”الخواطر الغريبة التى كانت تجيش فى صدرها“ فلم يسمح لها حتى بذلك واطلعت فرأت تمثال ”الحرية“ قائما ازاءها فقالت كلمتها المشهورة ”إيه أيتها الحرية ! كم من الجرائم ترتكب باسمك الكريم !“ .

ثم جاء دور لامارش فتقدمت عليه ليرى كيف أن الموت سهل فيطمئن قلبه ولكن سامسون أبى عليها ذلك بدعوى أنه مخالف للنظام فأصرت قائلة :

”إنكم لن ترفضوا آخر ملتئمست لتقدم به اليكم سيدة !“ .

فأدعن لها الجبار !

وكان أعز الضحايا من بعد مدام رولان ذلك الشيخ الوقور رئيس الجمعية الوطنية الأولى وأول محافظ لمدينة باريس . أعنى به ”باي“ المسكين الذى أرهق شيخوخته بالتفانى فى خدمة الشعب وتوفير سعادته . سبق فى اليوم العاشر من شهر نوفمبر الى الاعداد تحت رذاذ من الصقيع ووابل من السباب والأوحال التى كان يرميه بها الغوغاء . ولما وقفت به العربة فى ساحة (الشان دى مارس) أبى الشعب إلا أن تنصب له الجبلتين على كومة القاذورات التى فى جانب النهر فسارت العربة به إليها . وهناك وقف الشيخ المسكين ساعات طويلة فى الزمهرير حتى أتم الجلادون عملهم . ثم صعد الى المقصلة وهو ينتفض فلاحظ أحدهم عليه ذلك فأجابه الشيخ فى رزانة وحلم (Mon Ami ! c'est de Froid) — إنها هزة البرد يا صاحبي !

وأعقب باي بيتون وبارناف . وجاء بعد هذين كاستين
وبقية القواد الذين لم يوفقوا في مقاومة الأعداء فسار الى المقصلة
هوشار الشجاع وبوهارنيه النبيل (زوج جوزفين التي تزوجها
نابليون فيما بعد) ووسترمان البطل . وان منهم جميعا إلا كان
واردها !

(١) الجمعيات الوطنية (لاستاذ عبد الرحمن الرافعي) .

الفصل الحادى عشر

روح التبديل

وبلغت الثورة على القديم أقصاها . ووصلت بالناس نزعة التغيير الى متنهاها . فالغنى التقويم المعروف واعتبر يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ وهو اليوم الذى بدأت فيه الجمهورية فاتحة عهد جديد وتاريخنا توقفت به السنين والشهور كما فعل المسلمون بيوم الهجرة . ثم قسمت السنة الى اثنى عشر شهرا متساوية كل شهر منها ثلاثة (أعشير) بعد أن كان نحو أربعة (أسابيع) وجعل اليوم الأخير من كل (أعشور) يوم عطلة كما جعلت الخمسة الأيام التى تبقى فى آخر كل عام أيام عطلة عامة واستتبع هذا النظام ضياع معالم الأسبوع القديم بأحاده المقدسة ومواسمه الموروثة . فقام (جوبل) رئيس أساقفة باريس ودعا الناس الى نبذ الديانة المسيحية ولم يزد فى ذلك على المطالبة بالاعتراف بأمر كان واقعا من قبل . فقد شغل الناس منذ زمان عن الكائنات والعبادة والتفكير فيما بعد الموت بما كان يهددهم من الأخطار التى لم يكن بد من أن تؤدى بهم الى الموت . ولاحق لهم بعض الفوائد العملية فى نبذ

الديانة وهدم الكنائس فبنذوها واستولوا على ما في الكنائس من
أواني الذهب والفضة ونزعوا منها أجراسها بعد أن قدر الخبراء
منهم أنها تكفى لصنع ١٥,٠٠٠ مدفع .

وسرت في القوم هذه الروح فقادهم ذلك الى وضع نظام
جليد لمقاييس الطول والوزن والكيل فبنيت كلها على الأساس
العشرى الذى انتشر استعماله بعد ذلك فى أنحاء المعمورة .

الفصل الثاني عشر

التنازع على الزعامة

كان زعماء الارهاب ثلاثة : دانتون . وروبسيير . ومارا . وكان لكل واحد من هؤلاء شيعته وأنصاره . وقد اتفقوا جميعا وعقدوا الخناصر على تخلص الوطن مما كان يهدده من الأخطار .

فلما زال الخطر بانحداد الفتنة في الداخل وانتصار الجيوش الفرنسية في الخارج ورسخت بذلك أقدام الجمهورية رأى دانتون أنه لم تعد ثمة حاجة الى المضي في « الارهاب » . وان ذلك يكون من (اللجنة) خروجا على حدود الواجب الذي أنشئت للقيام به .

وكان روبسيير عضوا في (اللجنة) التي يتهمها دانتون بالغلو والاسراف ويطعن فيما تتخذه من التحفظات التي يراها هو وأمثاله لازمة لصيانة الجمهورية والاطمئنان على سلامتها فوق الخلاف بينهما على ذلك .

أما حزب مارا فانه بعد موت زعيمه أصبح في يد شومت (Chaumette) وهير (Hebert) وأمثالهما من الفوضويين الذين قضوا على المسيحية ونشروا مبادئ الكفر وهدموا كل نظام قديم وكانوا سببا في تلك الفوضى التي عمت فرنسا في عهد الارهاب .

وكان شومت يسير (كومون باريس) على حسب هواه هو ووكيله هير كما كان روبسبير صاحب الكلمة النافذة في اللجنة الأمن العام) . أما دانتون فانه كان قد اعتزل الخدمة العامة منذ زمان .

وكان روبسبير متشعبا بتعاليم روسو الدينية وكان يحفظ جيدا قول فولتير : ” اذا لم يكن الله موجودا فان الضرورة تقضى بايجاده ! “ ولذلك كان شديد الحق على هير وأعوانه (الملاحدين) . وكذلك كان شديد الإيمان بفضل (الارهاب) في دفع الأخطار التي كادت تقتل الثورة فلم ترقه دعوة دانتون الى إلقاء السلاح واستبداله بأغصان الغار والزيتون . وعلى ذلك فكر في التخلص من الحزبين ليحكم فرنسا بنفسه على طريقته المثلث ويقيها شر ما يريد لها (أصدقاؤها الجهلاء) !

وكان المؤتمر قد قرر (١٠ نوفمبر سنة ١٧٩٣) تحت تأثير كومون باريس وزعمائه الاحتفال باعلان الدين الحديد الذى ابتدعه هيبير باسم "عبادة العقل" فى كنيسة "تردام دى پارى" بجىء فى ذلك اليوم بامرأة « عاهرة مشهورة » استوت على عرش عال فى صدر الكنيسة لتكون رمز المعبود الحديد وباشر الناس بحضورها مراسم عيدهم . فكان لعملمهم هذا من الوقع السيئ فى نفوس الجميع ما مكن روبسبير من مهاجمتهم فى إحدى خطاباتاته واتهامهم بأنهم لا بد أن يكونوا لأعداء الوطن عمالا وصنائع يعملون على هدم الجمهورية باسم التفانى فى سبيلها ويتقدمون باسم الفلسفة ليثيروا نار الحرب الأهلية فى البلاد . وكانت هذه التهمة كافية لارسالهم الى الجيولتين فسيقوا اليها جميعا . بعد ذلك بقبائل .

ولم يكد يفرغ منهم روبسبير حتى حول وجهه نحو دانتون . وحزبه لينفذ فيهم بقية قضائه .

وكان (كامى ديمولان) أشد أنصار دانتون ولسان حال حزبه . لا يزال يعرض فى مقالاته بالدكتاتورية والاستبداد الثورى ويدعو الى التسامح والعفو والسلام . فما كان من روبسبير إلا أن رد على هذه الحملات بخطبة من خطبه الشهيرة قال فيها :



كاي ديمولان

”ويج هؤلاء الناس من معتدلين ومتطرفين ! أنهم يتقدمون
إلينا تحت ألوية مختلفة ويدخلون علينا من طرق متباينة ! ولكنهم
جميعا يسиров نحو غاية واحدة . وهل من غاية لهم إلا هدم
هذه الحكومة الوطنية وتمكين عوامل الخراب من البلاد ؟
لقد كان أحد الحزبين يريد أن يدفعنا الى حدّ التطرف وهذا هو
الحزب الآخر يريد أن يقعد بنا مع العاجزين^(١) ! “ .

وأحس دانتون بعد ذلك أن عليه أن يقابل روبسبير ليتفاهم
معه فزاره في منزله وجرى بينهما حديث قال فيه دانتون : ” لاشك
أنه يجب علينا أن نقضى على الملكيين ولكن لا بد من أن نوجه
ضرباتنا الى حيث تستفيد الجمهورية . وأن لا نأخذ البريء بذنب
المسيئ ! “ . فأجاب روبسبير : ” ومن ذا الذى يقول بأننا
قتلنا بريئا واحدا ؟ “ . فالتفت دانتون باسما الى صاحب له كان
معه وقال : ” ما رأيك فى هذا الكلام ؟ إن بريئا واحدا
لم يقتل ! ؟ “ .

وكانت هذه الكلمات فصل الخطاب بين الزعيمين .

وفى مساء اليوم الثلاثين من شهر مارس سنة ١٧٩٤ أحيط
بمَنْزِل دانتون وقُتل منه الى معقل (الكسمبرج) حيث لقي



دانتون

أصدقاء ديمولان ولا كروا ووسترمان وغيرهم نخطبهم قائلا :
 ” لقد كنت أسعى لخلاصكم أيها الرفاق ولكن هاءنا أساق معكم
 الى حيث لا يعلم الا الله ! “ .

وقدم بعد ذلك دانتون وأصحابه الى محكمة الثورة . فلما سأله
 الرئيس عن اسمه وعمره ومحل سكنه قال : ” انى دانتون رجل
 الثورة . فى الخامسة والثلاثين من عمرى . ولن يكون لى سكن
 عما قريب . غير أن اسمى سيظل خالدا فى بانتيون التاريخ “ .

وكانت اجاباته واجابات رفاقه تثير خواطر الجماهير فتداركت
 المحكمة الأمر وأسكتهم بحجة أنهم لا يحترمون الهيئة وقررت الحكم
 عليهم دون سماع أقوالهم فصاح دانتون :

” اتنا نذهب ضحية أطماع طغمة حقيرة ! ولكنهم لن يتمتعوا
 طويلا بثمرة فوزهم الأثيم ! أننى أجر روبسيير خفى ! وانه للاحق بى
 بعد قليل ! “ .

ولقد كاد يتسرب الضعف الى قلب هذا البطل عند ما أقرب
 عن المفصلة فانه صاح : ” آه يا أحب الناس الى — يا زوجتى !

لن أراك مرة أخرى ! “... ولكنه ما لبث أن تشدد وقال مخاطبا نفسه : “ لا تضعف يا دانتون ! “... وتقدم الى الجلاد وهو يقول : “ اذا أتممت عملك فارفع للشعب رأسى عاليا فانه جدير بذلك ! “ .

وهكذا انجلت معركة الزعماء عن هزيمة حزبي مارا ودانتون وانتصار روبسبير .

الفصل الثالث عشر

روبسيير

وقضى ربك أن يتحقق ظن الافرنج في شؤم هذا الرقم (١٣) مرة أخرى فاذا هو يقع هنا رقماً لروبسيير وعنوانا للنحس الذي لاقته باريس على يديه !

خلاله الحق بعد أن قضى على منافسيه . وأصبحت فرنسا كلها تدين بطاعته وتذعن لإرادته فكان (الكومون) مواليا له كما كان (المؤتمر) لا يقوى على معارضته . أما (الجنة) فكان هو سيدها وولى أمرها .

وقد أخذ على نفسه منذ البداية أن يطارد ديانة هيبير من عقول العامة . وأن ينشئ للناس دينا جديدا لا هو نصرانية القسس القديمة ولا هو إلحاد هيبير الحديث ولكنه دين أساسه الإيمان بوجود إله قادر على كل شيء سماه هو " الذات العلية Etre Suprême " ودعا الناس الى عبادته وأقيمت لذلك حفلة في اليوم السابع من شهر مايو سنة ١٧٩٤ كانت في الحقيقة مناورة دينية يراد بها القضاء

على شعوذة هيبير وإزالة ما يمكن أن يكون قد علق بأذهان العامة من خزعبلاته .

ولكن أسلحة الإرهاب لم تلبث في يد هذا الطاغية أن زادت مضاء لا سيما بعد أن أحس بروح الحقد والحسد تدب في نفوس زملائه وتنسم في حركاتهم وأعمالهم روح التآمر به والتحزب عليه . وكان مما عزز يقينه في نواياهم أن وقع اعتداء على حياته يوماً ما فلما نجا منه اتخذ ذريعة للامعان في القضاء على خصومه وجمع أزمة السلطة كلها في قبضة يده .

فقسمت محكمة الثورة الى عدة دوائر حتى يتضاعف نشاطها وأصبح قانون العقوبات الذي تطبقه مقتصرًا على عقوبة واحدة هي عقوبة الاعدام . ولم تعد أدلة الادانة تتجاوز اقتناع المحلفين اقتناعاً أدبياً بثبوت التهمة وكان أعضاء المؤتمر لا يمكن تقديمهم للمحاكمة إلا بناء على قرار من (المؤتمر) نفسه فأصبحوا يحاكمون بناء على أمر (اللجنة) .

على أن هذه الاجراءات في ذاتها كانت باعنا قويا لجمع شتات المعارضة التي أخذت تتألف سرا على رويسبير ونبتها الى وجوب الاسراع في العمل واتهواز الفرصة لهدمه . وحدث بعد ذلك أن قامت عجوز من نساء باريس تدعو الناس الى عبادة رويسبير نفسه



رويسير

باعتبار أنه مسيح جديد . فحمل الناس على هذه (القديسة !) حملة منكرة . وبلغ من استياء روبسبير لقيام تلك العجوز (بتبليغ رسالتها) على كره من (الإله) الذى تشتغل لحسابه مبلغا عظيما جعله ينسحب من الحياة العامة زمانا . نفلا مجال الدس أمام خصومه ووجدوا أن الفرصة التى كانوا يترقبونها قد سنحت أخيرا فنشطوا للقضاء عليه وعبثا حاول سان جوست أن يعدل روبسبير عن رأيه فى الاعتزال والبعد عن المجتمعات . وظل الرجل يعتقد أن سحر شخصيته سوف يلتف ما يَأفك أعداؤه اذا ما عاد بينهم . على أنه كان واهما فى هذا الزعم . فان خصومه كانوا جميعا يمحشون غدره ويتوقعون انتقامه . وهكذا تهيأت ظروف المعركة الحاسمة التى دخلها كل فريق وهو يعتقد أنه إما يخرج منها الى الصدر وإما ينزل فيها الى القبر !

وفى يوم ٢٦ يوليه سنة ١٧٩٤ حضر روبسبير جلسة المؤتمر وألقى فيها خطبة رنانة هاجم فيها خصومه مهاجمة شديدة . وكان المجلس قبل ذلك يقر كل كلمة يفوه بها ذلك الجبار . ولكنه فى هذه المرة قفز إحالة الخطبة على إحدى اللجان المختصة للنظر فيما حوته من اتهم !

عند ذلك أحس روبسبير بالضربة الأولى تقع على أم رأسه .
 وشعر بأن شخصيته تجردت من سحرها وأن كلامه عُرى عن قوته
 وتأثيره . وأن صحابة داكنة لاحت في جو مستقبله تنذر باقتراب
 العاصفة . فثار ثأره وأسرع الى نادى اليقاقة حيث أعوانه وخلصاؤد
 فألقى عليهم خطبته التى ألقاها فى المؤتمر فقابلوها بالتصفيق والحماسة
 العظيمة .

وفى جلسة المؤتمر التالية (٢٧ يولييه) عاد روبسبير الى المجلس
 وكانت فكرة إسقاطه قد اختمرت فى أذهان الأعضاء فقام النائب
 (تاليان) وشبهه بكرمويل وحمل على سياسته حملة موفقة قوبلت
 بالتصفيق الشديد . ونهض بعده النائب (قارين) فاتهمه علنا
 بالاستبداد والعمل على شل حركة المؤتمر فبهت روبسبير من هذه
 المفاجأة وخشى ان هو استمر فى صبره على هذه الأقوال أن تفعل
 فعلها فى النفوس ويتعذر عليه بعد ذلك أن يستعيد هيئته فقام
 محتدا وطلب الكلام .

ولكنه لم يكذ يظهر على درجات منبر الخطابة حتى صاح
 الأعضاء فى وجهه " ليسقط الظالم ! ليسقط الطاغية ! " .

فوجم الرجل لحظة ثم عاد ملحا فى طلب الكلام . غير أن
 خصومه أصروا على أن لا يمكنوه من ذلك وتهوشوا عليه وترددت

في جوانب القاعة صيحاتهم : "ليسقط الظالم !" ثم تقدم أحدهم في وسط هذه الضجة واقترح القبض عليه فصاح الأعضاء "نعم ! نعم ! إلى السجن إلى السجن !".

وعاد رويسير للمرة الأخيرة يحاول الكلام ولكن صوته اختنق وسط السباب والشتائم التي كانت تنال عليه فتقدم اليه النائب (جارينيه) قائلاً بروح التشفى :

" إن دم دانتون ^(١) يخنقك ! " .

ثم قررت الهيئة القبض عليه فأودع السجن في نفس الغرفة التي كان يشغلها بأمره دانتون وهيير من قبله .

(١) الجمعيات الوطنية فلا سناذ عبد الرحمن الرافعي .

الفصل الرابع عشر

خاتمة الارهاب

لم يكن روبسيير بطلا . ولا رجلا عظيما !
ولسنا نقول ذلك عنه الآن بعد أن دخل السجن . فنحن
نعلم أنه سيخرج منه مرة أخرى ولكنه سيخرج بسعى أنصاره
وجهودهم كما كان في الماضي يتنقل في مدارج الرق والعظمة على
سواعد أعوانه وشيعته . فكان هؤلاء هم الذين يرفعونه ولم يكن هو
يعمل — ويقول بعض عارفيه أنه لم يكن يستطيع أن يعمل — على
رفع نفسه ولم يثبت في حقه يوما أنه دبر خطة وجهها نحو غاية
معينة ثم أخذ على نفسه تنفيذها وإخراجها الى حيز العمل . وإنما
وقع له ما وقع من السلطان بحكم خلو الميدان من الزعماء الآخرين
الذين سقطوا بعوامل لا دخل لارادته فيها .

فلما أنتشر في باريس خبر سجنه ثار له اليعاقبة وحملوا سلاحهم
وذهبوا به الى السجن فأخرجوا منه زعيمهم . ثم ساروا في منتصف
الليل الى دار المؤتمر حيث كان المجلس منعقدا فأظهر الأعضاء من
الحكمة ورباطة الجأش ما ضمن لهم الفوز النهائي على أولئك المشاغين

الأشقياء وقزروا في رزاة ووقار أن المؤتمر يعتبر روبسبير وأعدائه خارجين على القانون ! فوق هذا القرار من نفس التأثيرين موقعا مهيبا وارتبكوا تحت تأثيره ولم يلبثوا أن انفضوا عن المكان وعادوا الى حيث كان روبسبير مجتمعاً بأصفيائه في (الكومون) فأبلغوهم قرار المؤتمر فاضطرب له روبسبير وأدرك أن الجمهور لا يمكن أن يغامر معه بعد هذا القرار . فحاول الانتحار بأن أطلق على نفسه رصاصة من مسدسه أصابته في فكه . ولكن تاريخ هذه الساعات لا يزال متناقضاً مضطرباً لم تتجلى حقيقته بعد . فان جنود المؤتمر دخلوا على العصاة في تلك الساعة للقبض عليهم . فادعى غلام اسمه "مردا" (Merda) أنه هو الذي أطلق الرصاص على روبسبير وتقدم بهذه الدعوى الى المؤتمر فصدقه وكافاه بترقيته الى رتبة ملازم . ويؤكد بعض المؤرخين بأن هذه هي الرواية الصحيحة في إصابة روبسبير كما يؤكد غيرهم بأن الرواية الأولى أصح .

ومهما يكن من أمر الجسريح فان عصابة جمعت فكه المدلى الى بقية رأسه وطرح على مائدة طويلة ووضع تحت رأسه صندوق من خشب الصنوبر وكانت أصابع يده لا تزال متشنجة على قبضة مسدسه ووقف الناس حوله يسبونهم ويسخرون منه بين سماعه وبصره ولكنه ينظر اليهم ولا يقوى على شيء !



رواية

فياعجباً لهذه الأقدار ! لقد ذهب بعض الفلاحين قبيل الثورة الى أحد الأشراف وشكوا له الجوع وانعدام الطعام فنصحهم أن يأكلوا العشب ! فلما قامت الثورة كان نصيب هذا الشريف أن يصلب ويحشى فيه بالعشب !

وهذا هو روبسبير كان يكاد يملك على الناس أنفاسهم التي تتردد في صدورهم فأبت الأقدار إلا أن يلقي أمامهم مختوم الفم مفتوح العينين والأذنين ليزوق مرارة السكوت على أن يسمع الانسان ما يكره ويرى ما لا يحب !

وفي الساعة الرابعة بعد ظهر يوم ٢٨ يولييه سنة ١٧٩٤ كانت عربات الاعداء تجرى مرة أخرى نحو (ميدان الثورة) وسط الجموع المتراصة التي لم يسبق لها نظير في شوارع باريس وكانت تحمل هذه العربات (عصابة روبسبير) ومن بينهم سيمون الأسكاف أستاذ ولى العهد فى التامبل فلما بلغت مستقرها طرح الزعيم الحريم الى جانب المقصلة حتى يأتى دوره . وأخيرا رفعه سامسون بين ذراعية ففتحت عيناه لتشهدا نصل المقصلة الدامى مصلتنا فوق رأسه . وامتدت يد الجلاد الى العصابة التي حول فكاه فارتعنتا وانفرج الفكاه عن صيحة كريمة وتدلّى فكاه الأسفل على صدره .
مرة أخرى ... ثم هوت على رأسه السكين^(١) !

الفصل الخامس عشر

اتهاء الثورة

قتل روبسبير وارتفع ذلك الكابوس المفزع الذى طحن فرنسا تحت كلكله تلك الشهور الطوال . وأحس الناس بعد موته كأنما أفاقوا من حلم مريع . وأصبحوا يتلهفون جميعا للعودة الى الحياة الأولى . حياة الدعة والسكينة والاطمئنان . وأنساهم مساوئ تلك الحياة ما أصبحوا فيه من الضنك والرعب والارتباك . وتعالى الأصوات من كل ناحية بمطاردة عمال الارهاب والتخلص من نفوذهم . فألغيت محكمة الثورة وأغلقت أندية اليعاقبة وأخلت السجون من كثير من نزلاتها . وعاد الناس يتنفسون فى جو من الحرية المنعش ودبت الحياة فى انقاض حزب الجيرندين وتجمعت فلوله التى بقيت بالمؤتمر وحاولت أن تقبض مرة أخرى على دفة الحكم وتعود بتلك السفينة المرتطمة التى خلفها لها روبسبير الى شاطئ السلام والرخاء والنظام . وانحازت أغلبية المجلس الى الجيرندين وانتعشت الآمال فى قرب انفراج الأزمة واشتغل المؤتمر بوضع نظام نهائى لحكومة الجمهورية .

ولكن اليعقوبيين لم تكن تروقهم هذه الحركة بطبيعة الحال فانتشروا يثيرون الناس من جديد على هيئة المؤتمر . وساعدهم في نشر هذه الدعوة ما كانت تعانيه البلاد من الضيق وقلة الأوقات . فكثر اجتماعات العمال والفوغاء وأخيرا تقدموا للمؤتمر بطلباتهم وفي مقدمتها تنفيذ دستور ١٧٩٣ الذي وضع في عهد الارهاب وحالت ظروف البلاد في ذلك الوقت العصيب دون تنفيذه . وكان يمتاز هذا الدستور بأنه يجعل الحكم للشعب مباشرة لأن حق الانتخاب فيه مقرر لكل من بلغ عمره ٢١ سنة وكانت السلطة التشريعية بمنتزاه في يد مجلس واحد ينتخب أعضاؤه بالاقتراع العام . وكان لا بد لنفاذ القوانين التي يصدرها هذا المجلس من استفتاء الشعب فيها استفتاء عاما . أما السلطة التنفيذية فكانت لا تقل عن السلطة التشريعية استنادا الى مشيئة الشعب .

وغنى عن البيان أن مثل هذا الدستور كان أدعى الى الفوضى منه الى النظام نظرا لأنه يحاول أن يشرك أفراد الأمة كلها في حكم البلاد . فقرر المؤتمر ادخال بعض التعديل على نصوص هذا الدستور وعينت لجنة للقيام بهذا العمل فثار الجمهور بإيعاز اليعاقبة . وهاجم دار المؤتمر واقطع أبوابها واختلط بالاعضاء وحاول أن يمحلمهم بالارهاب على إجابة مطالبه ولكن هيئة المؤتمر ظلت ثابتة واعتصمت

بالحكمة والرياسة حتى تفرق الثائرون وعند ذلك أسرع الى إصدار قرار بأن حرية مداولات المؤتمر قد اعتدى عليها في ذلك اليوم وأنه لا بد من اجراء التحقيق لمعرفة زعماء هذه الفتنة وتوقيع العقاب عليهم كما قررت نفي أربعة من زعماء اليعقوبيين من فرنسا . واعلان الأحكام العرفية في باريس وتعيين الجنرال "بشيجرو" حاكما عسكريا للمدينة حتى يزول خطر الفتنة ويعاقب مدبروها . وهكذا تمكن المؤتمر من رد كيد العصاة في نحورهم .

وانتهت هذه الجلسة التاريخية في الساعة السادسة من صباح ٢ أبريل بعد أن ظلت سواد الليل منعقدة بلا انقطاع^(١) .

ورأى اليعاقبة بعد هذه الهزيمة المنكرة أن المؤتمر أثبت من أن تزعمه مظاهراتهم ومفاجأتهم فقرروا فيما بينهم أن يرسموا خطة منظمة لمهاجمته واضطرار أعضائه بقوة السلاح الى التسليم بمطالبهم وأهمها الافراج عن زعمائهم واعادة دستور سنة ١٧٩٣ من غير تعديل .

وفي صبيحة اليوم التالي (٢٠ مايو سنة ١٧٩٥) أطبقت جموعهم حول قاعة الاجتماع ثم دخلوها مدججين بالسلاح وأحاطوا برئيس الجمعية ليحملوه على إقرار ما يطلبون ولكنه بقي ثابتا رابط الجأش على الرغم من وقاحة مهاجميه . وأخيرا تقدم النائب (فيرو) .

ليصد عنه الغوغاء فرماه أحدهم برصاصة قتله وحمل الثوار جثته الى الخارج حيث مثل بها الرعاع وقطعوا رأسه ودخلوا به الى القاعة محمولاً على ربح طويل . واستمرت الفوضى نحو ست ساعات تقضت على مثال ساعات الثورة الأولى . ولكن جنود الحكومة تمكنت في النهاية من إخماد الفتنة وتخليص الأعضاء مما كان يحيط بهم من الأخطار . وقد انتقم المؤتمر لنفسه هذه المرة انتقاماً ذريعاً فقرر القبض على جميع الزعماء اليعاقبة ومحاكمتهم وتجريد كل من يشبهه في انتمائه الى اليعقوبيين من السلاح . وسيرت حملة عسكرية على معقل الفتنة في شارع سانت أنتوان لتنفيذ هذا القرار فوق في يدها كثير من الزعماء وحكم على كثير منهم بالاعدام وبذلك هدأت الأحوال . وعاد المؤتمر يتناقش في مشروع الحكومة الجمهورية الجديدة .

فقرر أن تتكون الهيئة التشريعية من مجلسين : يتألف أحدهما من ٥٠٠ عضو ويسمى مجلس الخمسمائة ، ويتألف الآخر من ٢٥٠ عضواً لا يقل عمر أحدهم عن ٤٠ سنة ويسمى مجلس الشيوخ . وقد جعل لمجلس الخمسمائة وحده الحق في تقديم مشروعات القوانين والمناقشة فيها على أن تعرض بعد ذلك على مجلس الشيوخ ليقراها أو يرفضها . أما السلطة التنفيذية فقد وضعت في يد مجلس يتألف

من خمسة مديرين يتعاون في انتخابهم مجلس الخمسمائة ومجلس الشيوخ .
ويستقط كل سنة واحد منهم بالاقتراع .

وقد رأى المؤتمر أن يزيد على قواعد هذا الدستور قاعدة أخرى
اشتراط فيها أن ينتخب ثلثا الهيئة الجديدة من بين أعضائه وينتخب
الثلث الباقي فقط من الخارج . وذلك ليضمن توفر الأغلبية التي
تسير بالحكومة على خطته وليأمن جانب الدخلاء وسوء تصرفهم
في إدارة شئون البلاد . فكان هذا الفرار كفيلا باحداث
ثورة عامة من الملكيين واليعقوبيين . ولكن المؤتمر كان قد استعد
للطوارئ . فسلم قيادة الجيش الداخلي الى (بارا) الذي ألقى عبء
صيانة المؤتمر على عاتق ضابط من ضباطه الأكفاء وهو نابليون
بوناپرت الكورسيكى الذى ميز نفسه فى حصار تولون فما كان من
نابليون هذا إلا أن نصب مدافعه حول المجلس وصوب أفواهاها
نحو كافة الطرق التى تؤدى اليه . فلما أقبل الثوار كعادتهم صائحين
صاخبين طالب إليهم باسم الحكومة أن يعودوا من حيث أتوا وإلا
أطلق عليهم مدافعه . فسخروا منه ولم يستمعوا له وأعرضوا عن
مقاتله وحسبوه هازلا فيما ادعاه . فأرسل عليهم ناره وأمطرهم وابلا

من قذائفه فأهلك كثيرا منهم وفر الباقون بعد أن تحققوا جدّ نابليون
وأَنهم كانوا هم الهازلين !

وفي ٢٦ أكتوبر سنة ١٧٩٥ انحل المؤتمر الوطني وانعقدت
هيئة حكومة (الادارة) الجديدة في اليوم التالي .



نابليون بونابرت

الباب الثاني

الديركتوار (حكومة الادارة)

أكتوبر سنة ١٧٩٥ — نوفمبر سنة ١٧٩٩

الفصل الأول

الادارة وفرنسا

اجتمع مجلسا (الادارة) في ٢٧ أكتوبر سنة ١٧٩٥ بعد أن انحل المؤتمر واشتغل مجلس الشيوخ بانتخاب المديرين الخمسة . فلما تم ذلك وكلت هيئة هذه الحكومة الجديدة رأى المديرون انهم على رأس حكومة بحجر الضب أو هي أخرب . إذ لم يكن بالقاعة التي أعدت لانعقادهم مكتب يجلسون حوله ولا ورق يكتبون عليه . وكانت الخزائن خاوية والجيش معطل الأجور . والأمة بأسرها تشكو قلة الطعام . وكاد اليأس يمتلك قلوبهم عند ذلك لولا أن الأحزاب السيامية كانت قد سمّت النزاع فأغلقت الأندية ورجع

الثائرون الى حقوقهم ومصانهم . . وعادت السكينة الى البلاد وانتظمت الحالة في داخلتها نوعا ما .

وكان استقرار الحكومة على هذا النحو خليقا بأن يمكنها من مهادنة أعدائها وعقد صالح شامل معهم جميعا لولا أن معاهدة (بازل Basl) — أبريل سنة ١٧٩٥ — التي انسحبت بعدها بروسيا من التحالف الدولى الأول كانت سببا فى أن تجدد إنجلترا عهدا مع النمسا على العمل بمفردهما لمقاومة الثورة واسترداد ما استولى عليه رجالها فى هولنده وغيرها . ولم يكن لفرنسا من القوة البحرية ما يمكنها من مواجهة إنجلترا فحولت جهودها الى النمسا . ورسم كارنو (Carnot) خطته لمهاجمتها بتوجيه ثلاثة جيوش اليها سار أولها عن طريق (المالين) تحت قيادة جوردان (Jourdan) وسلك ثانيها طريق الطونة تحت قيادة مورو (Moureau) وولى نابليون قيادة ثالثها ليقوم ببعض مناوشات فى إيطاليا تكون سببا فى توزيع جيوش النمساويين بين ألمانيا وإيطاليا . حتى يتسنى للجيشين الرئيسيين الانتصار على الأرشيدوق شارل قائد الجيوش النمساوية فى ألمانيا . ولكن أبت نفس ذلك الضابط الفتى إلا أن يكون بطل هذه الحرب وفارس ميدانها . فلم تلتحم فرقته بجيوش أعدائه حتى بهر أبصار أوروبا بكراته وانتصاراته .

الفصل الثنائي

نشأة نابليون — حياته الأولى

كانت أمه ليتيشيا رامولينا سيدة كورسيكية من الطبقة الوسطى وكان أبوه شارل بونابرت من سلالة أسرة شريفة نشأت في (تسكاني) (Tuscany) بإيطاليا . ولكنها أصابها الفقر وأخنى عليها الدهر فهاجرت الى كورسيكا وهناك ولد نابليون في مدينة (أجاكسيو) في الخامس عشر من شهر أغسطس سنة ١٧٦٩ ولم يكد يبلغ العاشرة من عمره حتى أدخله أبوه مدرسة (برين) الحربية في فرنسا حيث قضى خمس سنوات ونصف كان في غضونهما يقدم اسمه في تقرير المدرسة الى الملك لامتيازاه في دروس الرياضة وسعة اطلاعه على التاريخ والجغرافيا . وفي سنة ١٧٨٤ غادر برين ودخل مدرسة باريس الحربية ونال بعد سنة فيها رتبة ملازم ثان في المدفعية الفرنسية .

حياته العملية

وانصرف في ذلك العهد الى الشؤون الكورسيكية بكليته وكان شديد الكراهة لفرنسا نظرا لأن بلاده (كورسيكا) كانت إذ ذاك تابعة لجنوا فقام فيها حزب يسمى لتحقيق استقلالها . وكادت نتوج

جهوده بالنجاح لولا أن تقمّت فرنسا لشراء هذه الجزيرة بما لها . فأُسْرعت جنوا الى بيعها وتسليمها . وبذلك اعترضت فرنسا طريق أبنائها المجاهدين وقضت على آمالهم الوطنية .

على أن نابليون انضم الى جانب الشعب في الثورة الفرنسية عند قيامها ثم اعتزل مركزه فيها وعاد الى كورسيكا طمعا في أن يكون قائدا لحدى فرق الحرس الوطني في أجا كسيوا . فلما لم يفلح عاد الى فرنسا مرة أخرى مع أسرته وفي سنة ١٧٩٣ كان قائد المدفعية في حصار تولون ورفع بسبب فوزه في هذا الميدان فوق مرتبته . وفي سنة ١٧٩٤ انتدبته لجنة الأمن العام لقضاء مهمة سياسية في جنوا وسقط بعد ذلك روبيير . وكان نابليون ممن أوقفوا وسجنوا في خلال تلك العاصفة . ولم يفرج عنه إلا ”لاحتمال نفعه“ في المستقبل . وأستعان به بعد ذلك (بارا Barras) لحماية المؤتمر من التأثيرين كما أسلفنا . ولم يمض على ذلك قليل حتى عين في ٩ مارس سنة ١٧٩٥ قائدا عاما لجيش ايطاليا الذي أعد لغزوها وهو لم يبلغ من العمر إلا خمسا وعشرين سنة .

وفي مساء ذلك اليوم التاريخي تزوج بـجوزفين بوهارنيه خلية بارا وأرملة أحد أشراف فرنسا الذين ذهبوا ضحية مقصلة الثورة الفرنسية .

الفصل الثالث

الحملة الإيطالية

لما وكل أمر هذه الحملة الى نابليون رأى أن يجعل قاعدته الحربية بين مدينتي نيس وجنوه على ساحل البحر الأبيض المتوسط ثم يزحف من هناك على سهول ايطاليا الشمالية ولكن جيوش النمسا وحليفها سردينيا كانت منتشرة على الجبال اتى توازى الساحل شمالا لتسد الطريق أمامه ولتمنعه من الزحف على تلك السهول .

ولم تكن تزيد قوة نابليون على ١٠٠ ألفا من الشبان الفرنسيين حديثي العهد بالجنودية والذين لا خير فيهم إلا أنهم كانوا شبانا أقوياء امتلأت قلوبهم حماسة ونشاطا . وهم فيما عدا ذلك ضائعون بين ملابس رثة ممزقة وأطعمة رديئة قليلة ومرتبات معطلة ضئيلة . ولم يكن في خيول هذه الحملة كلها أكثر من مائة حصان تصلح للعمل . فكان في تولية شاب حديث السن مثل نابليون على حملة مضعضة مثل هذه الحملة ضرب من ضروب التفكك في مراعاة النظر . وظن كثير من الناس أنه من خرق رأى الحكومة . أن تقوم بمثل هذه الأعمال .

أما نابليون فإن زيارته لتلك البلاد سنة ١٧٩٤ أعانته على القيام بواجبه خير قيام . كما أنه اتخذ ما كانت عليه فرقته من سوء الحال وسيلة لاحتراز النصر حيث أطمع رجاله في وفرة العنائم التي يطرحها النصر تحت أقدامهم وإليك أول خطاب وجهه الى جنده حين أشرف على سهول لمباردى :

”أيها الجند : إنكم والله لجياع عراة . وإن الحكومة لمدينة لكم ولكنها لا تستطيع أن ترفع عنكم سوء حالكم . وأن صبركم على ذلك وتجلدكم لن يجدياكم غير الشرف . فلا كسب فيهما ولا نفع . وهاءنا أقودكم الى أخصب سهول العالم حيث المدن العظيمة والغنى الوفير بل حيث تجدون الشرف والعزة ولذات الحياة . فياجنود جيش إيطاليا . أوتفصكم في ذلك الشجاعة ؟ ! “ .

فقابل الجند هذا الخطاب بالهتاف وانسابوا من خلف قائدهم على النساويين وكان أهل سردينيا في حلف معهم كما أسلفنا ورأى نابليون أنه لا يقوى على مواجهة الخصمين متحدين فعمل على مقابلة كل منهما بمفرده . فأنزل ضرباته الأولى على قلب الجيش النمساوى حتى صدعه . ثم أسرع الى السردانيين فتعقبهم حتى كاد يبلغ حاضرة بلادهم (تورين) فبادروا بمهادنته ونزلوا له عن المعادل العظيمة التي تعتبر مفتاح إيطاليا من هذه الناحية .

وكان في عزم نابليون بعد فراغه من ايطاليا أن ينضم الى جيشي جوردان ومورو لمهاجمة النمسا في الشمال . ولكنه علم أن الفوز كان للأرشدوق شارل عليهما حيث ردهما الى ما وراء الرين . وبذلك استطاعت النمسا أن تبعث بنجدياتها الى مدينة ما نتوا التي كان يحاصرها نابليون في سهل (البو Po) فأخذ عدته للقاء هذه النجديات وشتها واحدة بعد واحدة وانتهى الحال بحماية ما نتوا أن فتحت له أبوابها في فبراير سنة ١٧٩٧

ولما لم يبق أمام بوابرت مجال للقتال في ايطاليا رقى بفرقته جبال الألب . وانحدر منها الى سهول النمسا الجنوبية . فارتد اليه الأرشدوق شارل والتحم معه في عدة معارك متتابعة كان النصر فيها جميعا لنابليون وما زالت تتقدم جنوده حتى بلغ مدينة ليوبن (Leoben) وهي تبعد عن فينا ٨٠ ميلا فقط فتقدمت اليه رسل النمسا في طاب المهدنة . وعقدت بعد ذلك معاهدة كامبو فورميو (Campo Formio) التي تقرر فيها أن تنزل النمسا لفرنسا عن البلجييك ولولايات غرب الرين في نظير أن تستولى هي على البندقية . وبلغت قيمة الأموال التي أرسلها نابليون الى حكومة الادارة خلال هذه الحملة خمسين مليوناً من الفرنكات .

ولقد كانت هذه الحرب فاتحة عهد جديد في تاريخ فرنسا
فإن الفرنسيين كانوا قبلها يحاربون في طلب الحرية أو لنصرتها .
فإذا هم في هذه يقضون عليها ويهبون أهلها ودعاتها غنيمة لغيرهم
كما فعلوا بجمهورية البندقية — تلك الجمهورية التي لقبها الناس بحق
”عروس الأديرياتيك“ والتي كانت لها السيادة في بحر الروم
سنين عددا . على أن نابليون لم يكتف منها بذلك . بل سلبها
مآثرها وحمل منها الى فرنسا تحفها وطرفها وكان هذا دأبه بعد ذلك
في كافة غزواته . وهي هفوة منه جعلت فرنسا بغيضة الى كل
الشعوب ونفرت منه الناس وجمعت حوله حزازات القلوب .

الفصل الرابع

الحملة المصرية

غادر نابليون فرنسا في بدء الحملة الايطالية ضابطا نكرة لا يعرفه إلا أفراد قلائل من رجال الجندية ورجال الحكومة الفرنسية . ولكنه عاد اليها بعد انتصاراته الباهرة علما مشهورا لا يتحدث الناس إلا بما صنع ولا يتطلعون إلا حيث طلع . والتف حوله الشعب وخشى المديرون على نفوذهم أن يخسف أمام هذه الشخصية الساطعة فودوا لو تخلصوا منه وأبعدوه عن فرنسا .

ورأى نابليون بدوره أن الحرب هي التي رفعتة الى هذه المنزلة السامية . وأن الحرب هي التي تحتفظ له بها . فأطال التفكير في التماسها . وجد في البحث عن ميدان جديد يتسع المجال فيه لمواهبه وما كان يملأ صدره من الآمال .

وكانت انجلترا لا تزال على عدائها لفرنسا بعد أن انحل التحالف الأول وانسحبت الدول التي اشتركت فيه واحدة واحدة فعول نابليون على نزاهها ولكنه رأى أن يحاربها في مستعمراتها الشرقية وأن يبدأ بغزو مصر ليجعلها قاعدة حربية له يسير منها جيوشه إلى ولايات

الهند . ورأت الحكومة أن هذا يحقق فكرتها في إبعاد نابليون عن فرنسا فاستحسنّت هذا الرأي وبذلك اتفقت الآراء جميعها على القيام بهذه الغزوة وأعدت معدّاتها . ووكل أمر تنفيذها إلى نابليون .

وفي ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ خرج نابليون من نهر طولون بجيشه ومراكبه سرا . لأنّ إنجلترا بعد أن وقفت على نواياه أرصدت له "نلسون" أميرال البحر الانجليزي ليحول دون وصوله إلى مصر . ولكن زوبعة قامت في ذلك اليوم اضطرت نلسون إلى العدول نحو الشاطئ قليلا . فانسابت مراكب نابليون في عرض البحر وبلغت "مالطا" ثم انتهت إلى الاسكندرية في أول يولييه سنة ١٨٩٨ حيث أعلن نابليون احترامه للاسلام والمسلمين وأنه إنما أتى من قبل السلطان لطرد المماليك ونصرة المصريين عليهم . فلم يلق مقاومة من الشعب . وكل ما أبداه المماليك من المقاومة أن زعيمهم مراد بك حاول لقاءه في شبراخيت كما حاول صدّه في إمبابة فخاب أولا وثانيا . ودخل نابليون القاهرة في ٢٤ يولييه حيث جاءه نبأ (موقعة النيل) التي حطم فيها نلسون مراكبه عند "أبي قير" .

ولما رأى نابليون أنه انقطع بذلك عن فرنسا وجه جيوشه إلى الشام لتعويض هذه الخسارة فاستولى على العريش وغزا ويافا

ثم حاصر عكا حصارا طويلا تكبد فيه خسائر فادحة واضطر
في آخر الأمر إلى رفع الحصار .

ولقد بلغه في ذلك الحين من أخبار فرنسا وارتباك حكومة
الإدارة وقيام الدول بتحالف ثان عليها ما جعله يفكر في العودة إليها
لا سيما بعد أن فشلت الحملة المصرية وضاع كل ما كان قد علق
عليها من الآمال^(١) .

غير أنه لم تكد تطأ قدماه أرض مصر حتى علم بوصول حملة
عثمانية إلى أبي قير . فسار إليها من فوره وردها على أعقابها ثم عهد
الأمر في الديار المصرية إلى الجنرال كليبر أحد قواده . وسافر سرا
في الثاني والعشرين من شهر أغسطس إلى الإسكندرية . واستقل
من هناك زورقا صغيرا حمله هو وجماعة ممن معه إلى فرنسا فوصلها
في أكتوبر سنة ١٨٩٩

(١) كانت نابليون يعجب بتاريخ الاسكندر المقدوني وكان يحلم بإنشاء
إمبراطورية في الشرق تضارع إمبراطوريته .

الفصل الخامس عشر

(١) انقلاب برومير

بينما كان نابليون يقوم بغزواته في مصر وسوريا كانت الادارة تريد أن تثبت أن في فرنسا غير نابليون قوادا أكفاء وساسة عظماء ينشرون نفوذها ويعلمون كلمتها . فسيرت جيشا الى روما قلب حكومتها البابوية الى جمهورية بعد أن قبض على البابا نفسه وهو اذ ذاك في الثمانين من عمره وأرسله الى فرنسا أسيرا حيث قضى نفيه سنة ١٧٩٩ م .

وكانت سويسرا بحكم ممانحتها لفرنسا قد تأثرت بمبادئ الثورة وقام أهلها بفتنة ضد حكومتهم يسعون الى قلبها واقامة حكومة جمهورية فيها لحكومة فرنسا . فاتهمزت الادارة هذه الفرصة واحتلت البلاد السويسرية وقلبت نظامها الاتحادي الى نظام جمهوري . وكانت كذلك قد اتسمت إطماعها في ايطاليا فاستولت على بيدمنت وتسكانيا وناپولى وحملت جنوا على اعلان الجمهورية .

(١) برومير اسم الشهر الذي توافق شهر نوفمبر في التقويم الذي وضعه رجال الثورة .

ولكنها عجزت بعد ذلك عن الاحتفاظ بنفوذها في هذه الدائرة الواسعة فما كادت الدول تحس ذلك منها حتى تألف ضدها تحالف جديد دعت اليه انجلترا بقية أوروبا فاشتركت فيه :

(١) النمسا حبا في أن تستعيد نفوذها في ايطاليا .

(٢) وتركيا التي ضاعت مصر من يدها .

(٣) وروسيا التي لم يرقها تدخل فرنسا في الشرق .

وتقدمت جيوش المتحالفين ضد فرنسا في كل مكان وألحقت بالجيوش الفرنسية خسائر فادحة كانت هي السبب في اضطراب الادارة وترزعزع مركزها . والاسراع في عودة نابليون من الشرق . وكان الرأي السائد بين الفرنسيين اذ ذاك أن نظام الادارة لا يتفق مع سياسة التوسع الذي تريده فرنسا لأن تشعب السلطة في أيدي كثيرة من شأنه أن يربك الأمور لا سيما في أوقات الحروب . ولذلك اتجهت الأنظار الى قلب هذا النظام .

وقام فعلا (الأبى سيايس Abbé Sieyes) أحد المديرين الخمسة بوضع مشروع جديد لحكومة فرنسا جعل السلطة التنفيذية فيه بيد قنصلين : أحدهما للسلم ، والآخر للحرب ، ومن فوقهما رئيس صوري لتمثيل البلاد تمثيلا سياسيا على أن يكون له حق عزل القنصلين الآخرين . أما هو فيكون أمر عزله في يد مجلس

الشيوخ . ووزع السلطة التشريعية بين عدة مجالس حتى لا تستأثر بها هيئة خاصة . نخصص مجلسا لوضع مشروعات القوانين وآخر لمناقشتها ودرسها . وثالثا للاقتراع على قبولها أو رفضها ثم جعل من وراء كل هؤلاء مجلسا للشيوخ يحتفظ أعضاؤه بكراسيهم مدى الحياة ليكونوا قوامين على هذا الدستور ويكون في بقائهم ضمان لبقائه .

فلما وصل ناپليون من مصر ورأى أن الفرصة متهيئة لاجتماع الانقلاب الذى كان يبنى نفسه به ركز عزمه على أن يكون صاحب الشأن الأول فى نظام الحكم الجديد . وكان طبيعيا أن يضع يده فى يد (سيايس) أقدر المشرعين الدستوريين فى فرنسا فى ذلك الوقت . فتم الاتفاق بينهما على قلب نظام الحكومة الحاضرة أولا . حتى يفسح الطريق بعد ذلك لتنفيذ المشروع الذى وضعه سيايس . وفى الثامن عشر من برومير (٩ نوفمبر) بدأ سيايس بتقديم استقالته من عضوية الديركتوار وتبعه فى ذلك زميله ديكو (Ducos) وحمل بارا على الاستقالة كذلك . فسقطت الهيئة كلها . ودعى المجلسان الى الاجتماع والنظر فى معالجة الحالة ولكن ألقى فى روع مجلس النواب أن مؤامرة تدبر لأعضائه فى باريس فأغرى بذلك على قبول الانتقال مع مجلس الشيوخ الى ضاحية سان كلو

(St. Cloud) وكان المقصود باخراجه من باريس في الحقيقة أن يكون بعيدا عن حماية الشعب الباريسي وأن يقع مباشرة تحت تأثير الارهاب الذي قصده به نابليون حتى لا يعارض في إحداث الانقلاب .

وسار نابليون بنفسه الى سان كلو في كوكبة من جنوده المخلصين حتى دخل مجلس الشيوخ وهاك ألقى خطابا قال فيه ان نظام الحكومة الحالية أصبح عديم الفائدة وأنه ترك فرنسا زاهرة زاهية ولكنه وجدها عند عودته اليها ذابلة زاوية وأن جنودها فشلوا في جميع الميادين وأصابهم الخذلان وأنه هو وحده الذي صادفه التوفيق ولاحظته العناية . ثم دعا الى ضرورة تغيير نظام الحكومة .

وكان من المستمعين لهذا الخطاب بعض أعضاء مجلس الخمسمائة فحملوا فخواه الى زملائهم في مجلس النواب وما كاد يدخل عليهم نابليون بعد ذلك حتى صاحوا في وجهه :

« كرومويل ! فليسقط المستبثون ! »

اشارة الى أنه يريد أن يفعل بهم كما فعل كرومويل بالانجليز . ثم أوسعوه لعناوسا وأخذوا بنخاقه ودفعوه الى خارج المجلس . فاحتمله أعوانه وخرجوا به من القاعة فاقد الصواب وكاد يدركه

وأنصاره الفشل لولا أن أمر أخوه لوسيان بونابرت (وهو إذ ذاك رئيس المجلس) باخلاء قاعة الاجتماع فدخل الجنود بسلاحهم وهجموا على التواب فقتل هؤلاء أمامهم من الأبواب والنوافذ أيضا في حالة ذعر وفزع شديد .

وفي مساء ذلك اليوم المشهود عاد من التواب خمسون عضوا من الموالين لحركة الانقلاب واشتركوا مع مجلس الشيوخ في إصدار قرار بتشكيل حكومة مؤقتة من نابليون وسياس وديكو لإدارة شئون البلاد ريثما يتم وضع دستور جديد عهد تحضيره الى لجنة من المجلسين تعمل تحت إشراف الحكومة المؤقتة .

وعند ذلك تقدم سياس بمشروعه الذى ظل حتى هذه الساعة سرا مطويا في صدر صاحبه حتى أن نابليون نفسه لم يكن يعرف شيئا من تفصيلاته . ولكنه ما اطلع عليه ورأى توزيع السلطة فيه على النحو الذى سبق بيانه والذى لا يتحقق معه مقصده حتى قال : " ما أكثر ما أودعه سياس من الخيالات ! فان به خيالا للسلطة التشريعية وآخر للسلطة القضائية وثالثا كهيئة الحكومة . وانى لأراه في حاجة إلى شيء من السلطة المادية ! " .

وليس بخاف أين كان يريد نابليون أن يضع هذه السلطة المادية . فانه كان منذ البداية قد عقد النية كما أسلفنا على أن

يكون سيد فرنسا . فتناول المشروع بالتعديل والتبديل حتى أصبحت السلطة التنفيذية في يد ثلاثة قناصل يتولى أحدهم الرئاسة على زميله ويكون له وحده حق اعلان الحرب وتوقيع المعاهدات وانتخاب الوزراء و كبار الموظفين ورأسة الجيش والإدارة .

أما السلطة التشريعية فأصبحت تتألف من ثلاث هيئات :
(أولاهها) مجلس الشيوخ وكان عمله مقصورا على انتخاب أعضاء المجلسين الآخرين والاشراف على تطبيق أحكام الدستور .
(وثانيتهما) مجلس التربيون (Tribunat) الذي اختص بدرس مشروعات القوانين والمناقشة فيها .

(وثالثتها) هيئة تشريعية جعل اختصاصها ابداء الرأى فيما يعرضه عليها مجلس التربيون من المشروعات . إما بالقبول وإما بالرفض .

* * *

وقد عرض هذا النظام على الأمة فوافقت عليه أغليبتها العظمى وانتخب نابليون قنصلا أولا لمدة عشر سنوات . وعرض على سيايس أن يكون أحد القنصلين الثانين ولكنه رفض أن يشغل مركزا صوريا لاسلطة لصاحبه ولم يقصد به نابليون إلا نثر الرماد في العيون حتى لايتهم بأنه يعمل بمفرده . فعرضت عليه عند ذلك رئاسة مجلس الشيوخ .



وهكذا عادت الحكومة في فرنسا سيرتها الأولى . وانتهت
مقاليد الحكم فيها الى رجل واحد . وانقشع غبار الثورة ومعاركها
الدموية عن قصر التويلرى يسكنه نابليون وجوزفين بعد أن كان
يسكنه لويس وماريته . وانهزمت أمام القنصل الأول وسلطته
المطلقة مبادئ الحرية والأخاء والمساواة وامتلاّت ماصب الحكومة
بشيئته وأنصاره .

وأصبح النقد المباح جرماً لا يغتفر في حكومة نابليون الجديدة
من أجله ينفى من فرنسا أمثال مدام دى ستايل (Mme de Staël)
الصحفية القديرة التي جعلت دأبها مهاجمة استبداده والجملة عليه
وعلى أعوانه .

ولم يعد يسمع من صوت في فرنسا إلا ما كان صدى
لأرائه وأفكاره .

وأصبحت سياسة الدولة في الداخل والخارج لا ترمم وفقاً
يحسه الشعب أو تتطلبه المصلحة العامة . ولكن لتكون أداة لتحقيق
إطاع القنصل الأول وتأويل أحلامه .



خاتمة

على أن الحوادث التي مكنت لنا بليون في فرنسا بفعلته على رأس حكومتها أولاً ثم إمبراطوراً عليها فيما بعد لم تلبث أن تطورت فأسلمته هو وإمبراطوريته إلى القضاء . وأعادت فرنسا من جديد إلى أسرة (بوربون) .

فرجع لويس الثامن عشر ملكاً عليها كما كان أجداده من قبل . وورثها من بعد موته (سنة ١٨٢٤) أخاه شارل العاشر الذي كان استبداده برعيته وخروجه عن الحد في عدم الاكتراث بها سبباً في ثورة جديدة تعرف (بثورة سنة ١٨٣٠) أو ثورة (الأيام الثلاثة) . وجاء من بعد شارل هذا لويس فيليب بن (فيليب المساواة) (Philippe Égalité) وأقام في فرنسا حكومة ديمقراطية كانت جمهورية المعنى ملكية الاسم غير أنها لم تعمر طويلاً . وقامت ثورة أخرى في سنة ١٨٤٨ بسبب انحراف لويس فيليب عن مبادئه الديمقراطية الأولى وبذلك دخلت فرنسا في عهد الجمهورية الثاني وبقيت كذلك تحت رياسة لويس نابليون إلى أن سؤلت له نفسه السير على منوال خاله نابليون الأول فقلب .

الجمهورية الى امبراطورية ووضع على رأسه تاجها باسم (نابليون الثالث) .

غير أن عهد هذه الامبراطورية الثانية كان أكثر شؤما على فرنسا من عهد الامبراطورية الأولى فان البلاد ما زالت تخرج من حرب لتدخل في أخرى حتى تورطت في الحرب السبعينية التي انتهت سنة ١٨٧١ بهزيمة فرنسا وخلع نابليون واقامة الجمهورية الثالثة التي بقيت في فرنسا الى اليوم .



وخلق بنا قبل أن نختم هذه الرسالة أن نقف قليلا لتساءل عما إذا كانت الثورة الفرنسية قد حققت غاياتها—ولا مندوحة لنا عند الاجابة على هذا السؤال من التذكير بأن الثورة قامت في وجه حكومة مستبدة ونظام اجتماعي فاسد . فأما الحكومة المستبدة فقد صارعها الثورة حتى صرعتها ولكن الأمة الفرنسية عانت في هذا السبيل أشق الأهوال . فانها ما زالت تقيم الحكومة بعد الحكومة حتى عرفت بالتجارب أن الفرد لا يمكن أن يكون موضعا للثقة وأن الأثرة لا تزال تمنح بأطهر النفوس وأشدّها إخلاصا حتى تميل بها الى الاستبداد وان أليق النظم ما كانت الرياسة فيه لأجل قصير لا تفرخ فيه الأطلاع ولا تطير . فلبأت

الى نظام الحكم الجمهورى حيث تتولى الأمة جميع السلطات وجعلت انتخاب رئيس الجمهورية لمدة سبع سنوات فقط ولكنها حظرت أن ينتخب للرئاسة أحد أفراد الأسرات التى تولت الملك فى فرنسا . وبذلك عاجلت أول أدوائها وأصبحت آمنة من هذه الناحية مادامت مستمسكة بهذا النظام .

وأما فساد المجتمع ونظام الطبقات فقد سبق الفصل فيه منذ المعركة الأولى حيث قررت الجمعية الوطنية انقضاء عهد الاقطاع . وقام العامة فى الأقاليم بتطهير فرنسا تطهيرا عمليا من أشرافها وأصحاب الامتياز فيها . وبترع ملكية قطائعهم الواسعة وتمليكها للأمة لاستغلالها والانتفاع بما كان محبوسا عنهم من ثمراتها .

وخلاصة القول ان الثورة كانت نتائجها خطيرة عظيمة بقدر ما كانت ضحاياها كثيرة أليمة . ومما لا شك فيه أنها شقت بجهودها الدامية طريقا طويلا قزب كثيرا بين الانسان ومثله الأعلى فى بعض النظم الاجتماعية والحكومية .

انظر الى المجتمع الفرنسى كيف كان قبل الثورة موبوءا بطائفة من النظم العتيقة الفاسدة . كنظام السخرة . ونظام الاحتكار . ونظام الامتيازات . والتفريق بين الطبقات . ثم انظر اليه بعد الثورة كيف أصبح بريئا من شوائب هذا التأخر وكيف أقام أنظمتة

الحديثة على مبادئ الحرية والاخاء والمساواة . وجعل قاعدة دستوره أن الناس يولدون ويعيشون أحرارا وأنهم متساوون في ما لهم من الحقوق وما عليهم من التكليف . وأنه لا فضل لرجل على رجل آخر إلا بما تميزه به كفاءته .

وتأمل في حكومة فرنسا قبل الثورة كيف كانت أداة لتحقيق الاطماع الشخصية وكيف انتشرت الفوضى في ظل استبدادها فتناوت نظام التشريع ونظام القضاء ونظام الضرائب وغير ذلك من النظم . ثم تأمل فيها كيف أصبحت بعد الثورة في يد الشعب يديرها نوابه بما فيه صالح المجموع . وكيف كان هؤلاء النواب في مراكرهم رمزا (لسيادة الأمة) ومظهرا من مظاهر (الديمقراطية) التي هي اليوم غاية كل الحكومات ومطمح كل الشعوب !

من أجل هذا اكتسبت الثورة أهميتها . ومن أجل هذا قلنا إنها قاربت بين الانسانية ومثلها الأعلى في المجتمع وفي الحكومة . ومن أجل هذا سيظل التاريخ يحفظ لضحاياها أنهم عبدوا لأخوانهم من بعدهم هذا الطريق !

(مطبعة دار الكتب المصرية ٥٠٩/١٩٢٧، ٢٢٠٠)
